من بلاغة الاستفهام النبوى

فى أحاديث من صحيح البخارى

دكتور

هشام رزق إسماعيل زباوى

كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

فرع إيتاى البارود

" ولستُ شاكًا فى أنَّ ما يفُوتُنى من الجنْسِ الذى أقْصدُه أكْثَرُ من الحاصِلِ لي ، والوَاقع إلىَّ ، ولكننى أقْتَصرُ على ما تَنالُه فى هــذا الوقْتِ يَدِى ويَقْرُبُ مِنْ تَصفُّحى وتأمُّلى "

الشريف الرضى – المجازات النبوية ص ٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ذى الطول والآلاء ، وصلِّ اللهم على سيدنا محمد خاتم الرسل والأنبياء ، وسيد الفصحاء وإمام البلغاء ، وعلى آله وأصحابه الأتقياء الأوفياء ؛

وبعد

فإن الإنشاء الطلبى – كما هو معلوم – ينقسم إلى خمسة أنواع هى : التمنى والاستفهام والأمر والنهى والنداء ، ويعد الاستفهام من أبرز الأسباب البلاغية التى تكشف عن المعانى اللطيفة ، والأسرار الدقيقة الكامنة فى الأساليب الأدبية الرفيعة ، فضلاً عن إثارته لعقول المخاطبين وإيقاظه لقلوبهم ومشاعرهم مما يؤدى إلى تقرير المعانى فى نفوسهم وتمكينها . والبيان النبوى الشريف حافل بالأساليب الاستفهامية المختلفة التى تحتاج إلى جهود كثيرة مخلصة تكشف عما يكمن فى تلك الأساليب من دقائق الأسرار ولطائف المعانى ، ولقد حاولت – بقدر ما أوتيت من فهم وجهد – إيضاح بعضٍ من هذه الأسرار واللطائف ، وتجلية بعض مقاصده ﷺ من أساليبه الاستفهامية الواردة فى أحاديث هذا البحث المتواضع وعنوانه " من بلاغة الاستفهام النبوى فى أحاديث من صحيح البخارى رضى الله عنه " ، والاستفهام الذى أعنيه – هنا – بالدراسة والبحث هو الاستفهام الذى خرج عن معناه الحقيقى أى الاستفهام المجازى لأن " مزايا أسلوب الاستفهام تكمن فى الدلالة المجازية للاستفهام لكثرة ما فيها من الأغراض واللطائف " (١) أما الاستفهام

---

(١) التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الحكيم أ . د / عبد العظيم المطعنى ١/ ٤ ، ٥ .

الحقيقى " فليس للبلاغيين فيه بحث – كما ذكر شيخنا الأستاذ الدكتور / عبد العظيم المطعنى – لأن المراد منه ما دخلت عليه أداة الاستفهام ولا خلاف فى هذا " (١) .

وقد تصدر بحثى هذا تمهيد عن الاستفهام من ناحية دلالته ، وأدواته الخاصة به ، وأقسام هذه الأدوات من حيث المستفهم عنه ، وما تختص به " هل " دون غيرها من بقية أدوات الاستفهام الأخرى .

أما عن منهج هذا البحث فقد تمثل فى العناصر الآتية :-

أولاً : الإشارة إلى المقام الذى ورد فيه الحديث أو المناسبة التى جاء فيها ، وذلك لفهم معنى الحديث وموضوعه .

ثانياً : شرح وتحليل العبارة المتضمنة للاستفهام بعد تحديد موضوعها فى الحديث ، وتعيين الغرض البلاغى من الاستفهام الذى ورد فيها ، وذلك بمعونة السياق ومقام الكلام ، وإشارات بعض العلماء من شُراح صحيح البخارى كالعلامة ابن حجر وغيره .

ثالثاً : توضيح الألوان البلاغية المختلفة الواقعة فى سياق عبارة الاستفهام ، وبيان مدى ارتباطها بالمعنى المراد من الاستفهام .

رابعاً : تفسير وتحديد دلالات ومعانى الألفاظ الصعبة الواردة فى متن الأحاديث ، وذلك من خلال بعض المعاجم اللغوية ، حتى يتسنى معرفة مغزاها .

... وبعد فإنى أحسب أن الاستفهام النبوى الشريف لم يحظ بدراسة بلاغية مستقلة حتى الآن . حيث لم أعثر – فيما أعلم – على مُؤلَّف أو بحث

---

(١) السابق ١٨٢/٢ .

علمى اختص بدراسة وكشف أسرار ولطائف بلاغة الاستفهام فى بيانه الشريف ﷺ ، وإذا لم أكن قد فتحت الباب لدراسة هذا الموضوع الجليل فحسبى أننى قد طرقْتُهُ سائلاً الله الكريم – عز وجل – أن يكتب القبول لهذا البحث الذى لم أدخر جهداً ووسعاً فى سبيل الوصول به على الوجه الذى ظهر عليه ، وأن ينفع بما فيه من صواب ، ويعفو عما فيه من تقصير وأخطاء ، وأن يرزقنا جميعاً التوفيق والسداد فى القول والعمل إنه ولى ذلك والقادر عليه .

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين .

١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م

د / هشام رزق إسماعيل زبادى

تمهيد

الاستفهام

تعريفه : هو طلب حصول صورة الشئ المستفهَم عنه فى ذهن المستفهِم بأدوات مخصوصة (١) .

أو بتعبير آخر : " هو طلب العلم بشئ لم يكن معلوماً من قبل " (٢) .

وذلك بإحدى أدواته الخاصة به وهى الهمزة – هل – ما – من – متى – أيَّان – كيف – أين – أنَّى – كم – أىّ .

وهذه الأدوات تنقسم من حيث المطلوب بها أو المُستفهَم عنه إلى ثلاثة أقسام :

الأول : ما يطلب به التصديق تارة والتصور تارة أخرى وهو الهمزة فقط .

الثانى : ما يطلب به التصديق فقط وهو – هل .

الثالث : ما يطلب به التصور فقط وهو باقى الأدوات .

ونلحظ من هذا التقسيم أن " الهمزة " أعم فى الاستعمال من كل أدوات الاستفهام الأخرى وذلك لاستعمالها فى طلب التصديق والتصور ومن ثمَّ سميت الهمزة بأم باب الاستفهام وما سواها من الأدوات يعد نائباً عنها .

القسم الأول : " الهمزة " ويطلب بها التصديق تارة والتصور تارة أخرى .

---

(١) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص ٢/٢٤٦ .

(٢) جواهر البلاغة ص ٧٠ .

والمراد بطلب التصديق : " هو إدراك وقوع نسبة تامة بين شـــيئين أو عدم وقوعها أى إدراك موافقتها لما فى الواقع أو عدم موافقتها له (١) .

وبعبارة أخرى التصديق : هو إدراك النسبة والحكم بإثباتها أو نفيهـــا بين شيئين نحو : " أنجح محمد " ؟ فالسائل قد تصور النجاح ومحمداً والنسبة بينهما ولكنه يسأل ويستفهم عن وقوع هذه النسبة بينهما هل ثبت وقوعها فعلاً وتحققت له فى الواقع أوْ لا ؟ .

وكذا نحو : " أحضر الرئيس " ؟ فالسائل قد تصور الحضور والرئيس والنسبة بينهما ، ولكنه يسأل عن وقوع هذه النسبة بينهما هل هى ثابتة له فى الواقع أو منفية عنه ؟ والجواب فى حالة الإثبات يكون بـــ " نعم " ففى المثال الأول نقول " نعم نجح محمد " وفى المثال الثانى " نعم حضر الرئيس " .

وفى حالة النفى يكون الجواب بـــ " لا " ففى المثال الأول نقول " لا " أى لم ينجح محمد .

وفى الثانى " لا " أى " لم يحضر الرئيس " وبهذا يكون قـــد حصـــل التصديق .

ومن هنا فإن الاستفهام عن التصديق يكون عند تردد الذهن فى ثبوت النسبة أو نفيها بين طرفين أما المراد بطلب التصور : فهو " إدراك المفرد " وهو أحد طرفى النسبة : المسند إليه أو المسند أو أحد متعلقيهما . فـــإدراك أحد منها يسمى تصوراً .

وذلك نحو : " أخالد حضر أم أحمد " ؟ فالسائل يعلم أن الحضور قـــد حصل من أحدهما وأن نسبته ثابتة لواحد منهما ، ومن هنا فالسائل لا يســـأل

---

(١) حاشية الدسوقى ٢/٢٤٧ .

عن وقوع هذه النسبة وتحققها لأنه يعلمها ، وإنما يطلب بسؤاله تعيين المسند إليه أهو خالد أم أحمد ؟ فإذا قلنا فى الجواب خالد أو أحمد فقد حصل التصور .

ومنه " أأكرمت محمداً أم أهنته " ؟ فالسائل يسأل عن تعيين أحد المذكورين الكرم أم الإهانة ، والجواب عنه يكون بتعيين أحدهما وهو المسند " أكرمته " أو " أهنته " .

ومنه كلك السؤال عن أحد متعلقات الإسناد : المفعول ، والحال ، وظرفى الزمان والمكان ... وغيرها فحينما نسأل عن المفعول نقول : " أتفاحاً اشتريت أم برتقالاً " ؟ وعندما نسأل عن الحال نقول : " أراكباً أتيت أم ماشياً " ؟ وحين نسأل عن ظرف الزمان نقول : " أيوم الاثنين تزوجت أم يوم الأربعاء " ؟ ، وعن ظرف المكان نقول : " أفى المسجد صليت العيد أم فى الخلاء " ؟ والجواب عن كل ما تقدم يكون بالتعيين فيقال حسب ترتيب الأمثلة السابقة : تفاحاً ، راكباً ، يوم الاثنين ، فى المسجد ، وبهذا نلاحظ أن الجواب فى التصور يكون بتعيين مفرد معين من مفردات الجملة وهو المسئول عنه أو المستفهم عنه ، ويجب أن يكون المسئول عنه بالهمزة مذكوراً بعدها مباشرة – كما سبق فى الأمثلة – لأنه موضع الشك والتردد أما باقى أجزاء الجملة ومضمونها فإن السائل يعرفه ولاشك فيه ، ومن ثمَّ فإن الاستفهام عن التصور يكون عند التردد فى تعيين أحد الشيئين دون بقية أجزاء الجملة .

ومما ينبغى معرفته أن " أم " الواقعة بعد همزة الاستفهام عن " التصور " هى أم " المتصلة " وليست " أم المنقطعة " بدليل وقوع المفرد بعدها " لأن وقوع المفرد بعد " أم " الواقعة فى حيز الاستفهام دليل – كما

يقول البلاغيون – على أن " أم " متصلة إذ لو كانت منقطعة لوجب وقـوع الجملة بعدها " (١) " وإنما سميت أم المتصلة بذلك لاتصال مـا قبلهـا بمـا بعدها " (٢) .

وفى الغالب يذكر بعد " أم المتصلة " معادل ويكون مماثلاً للمسـتفهم عنه اسماً أو فعلاً أو ظرفاً ... إلخ ، كما نلحظ فى الأمثلة المتقدمة .

وقد يحذف هذا " المعادل " إذا دل عليه دليل فى الكـلام نحـو قولـه تعالى : ﴿ أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ (٣) .

فالهمزة هنا لطلب التصور أى لطلب تعيين " المسند إليه " أو الفاعل ، والجواب " بل فعله كبيرهم هذا ، والمعادل محذوف لدلالة المقـام عليـه ، وتقديره : أأنت فعلت هذا بآلهتنا أم غيرك ؟ .

أما إذا كانت الهمزة لطلب التصديق " فلا يذكر معها معادل وإذا جاءت " أم " بعدها كانت منقطعة بمعنى " بل " كقول الشاعر :

ولستُ أبالِي بعد فَقْدِى مالكاً

أموتِىَ ناءٍ أم هو الآنَ واقعُ (٤) .

فالهمزة فى البيت لطلب التصديق أى للسؤال عـن النسـبة ، و " أم " منقطعة للإضراب بمعنى " بل " حيث أضرب الشاعر عن الاسـتفهام الأول وهو : " موتى ناءٍ " إلى الاستفهام الثانى وهو " هو الآن واقع " ، وقد وقـع هذا الإضراب بـ " أم المنقطعة " التى بمعنى " بل " .

---

(١) حاشية الدسوقى وشرح السعد ومواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ٢/٢٥٥ .

(٢) حاشية الدسوقى ٢/٢٥٥ .

(٣) الأنبياء الآية : ٦٢ .

(٤) بغية الإيضاح ٢/٣٠ .

وتقدير الكلام : " أموتى ناءٍ بل هو الآن واقع ؟ " .

" وإنما سميت " أم " هذه منقطعة لانقطاع ما بعدها عما قبلها لأن الغرض من الإتيان بها الانتقال من كلام إلى كلام آخر فلذا كانت بمعنى " بل " الإضرابية " (١) .

" ولابد أن يقع بعد " أم المنقطعة " جملة فإن وقع بعدها مفرد قُدِّر بجملة نحو : " أحضر الأمير أم جيشه ؟ والتقدير : أى بل حضر جيشه (٢) .

.. هذا ومن بين الفروق بين " أم المتصلة " و " أم المنقطعة " .

" أن المتصلة لا يكون قبلها إلا استفهام إما لفظاً ومعنى نحو أريد أم عمرو قائم أو لفظاً لا معنى نحو سواء علىَّ أقمت أم قعدت ؟ فإن الاستفهام لفظى لا معنوى ، والمنقطعة قد لا يأتى قبلها الاستفهام لا لفظاً ولا معنى"(٣).

ومن الملاحظ أن الاستفهام بهمزة التصديق يكثر فى الجمل الفعلية ويقل فى الجمل الإسمية كما مرَّ فى أمثلته ، وذلك لأن " التصديق حكم بالثبوت أو الانتفاء ، والنفى والإثبات إنما يتوجهان إلى الصفات والأفعال لا الذوات " (٤) .

القسم الثانى : هل : وهى لطلب التصديق فقط فلا يسئل بها عن التصور " وتدخل على الجملة الفعلية نحو قولك : " هل قام محمد " والاسمية كقوله : " هل عمرو قاعد " وإنما تستعمل " هل " فى هذين التركيبين إذا أريد

---

(١) حاشية الدسوقى ٢/٢٥٥ .

(٢) جواهر البلاغة ص ٧٢ .

(٣) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ٢/٢٤٧ .

(٤) الإيضاح مع البغية ٢/٣٢ .

فيهما السؤال عن حصول التصديق بثبوت القيام لمحمد والقعـــود لعمـــرو أو عدم ثبوته لهما أى هل حصل القيام لمحمد أو لم يحصل له أصلاً وهل حصل القعود لعمرو أو لم يحصل له أصلاً " (١) .

ويجاب فى حالة الإثبات بـــ " نعم " و " بلا " فى حالة النفى .

وتختص " هل " بعدة أشياء هى :

أولاً : يمتنع استعمالها فى تركيب قُرنت فيه بما يدل علـــى الســـؤال عـــن التصور نحو قولك : هل علىٌّ قائم أم عمرو " لأن " أم " هنـــا وقـــع بعدها مفرد فدلَّ على كونها متصلة ، والمتصلة إنما تستعمل عند طلب التصور وإرادة التعيين بعد العلم بالنسبة .

والتصديق طلب النسبة ولكونها حاصلة فلا يسئل عنها إذ لا يسئل عن معلوم أصلاً ، وقد تقدم أن " هل " لطلب التصديق وبهذا فلا يمكن الجمع بين " هل " و " أم " المتصلة لأن الجمع بينهما يؤدى إلى التناقض " (٢) .

وبهذا فلا يصح نحو قولك : هل علىٌّ قائم أم عمرو " .

فإن وقعت " أم " بعد " هل " فهى " أم المنقطعة " التـــى تـــدل علـــى الإضراب والانتقال من كلام إلى كلام آخر مثل : " هل جـــاء صـــديقك أم عدوك " أى : " بل عدوك " .

وكقول الشاعر :

ألا ليت شعري هل تغيرت الرَّحى
رحى الحرب أم أضحت بفَلْج كما هيا

---

(١) شرح السعد ومواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص بتصرف ٢/٢٥٥ .
(٢) حاشية الدسوقى ومواهب الفتاح وعروس الأفراح بتصرف ٢/٢٥٥ ، ٢٥٦ .

والمراد : " بل أضحت بفلج كما هيا " على سبيل الإضراب عن الكلام السابق فهذا الأسلوب ونحوه يجوز مع " هل " دون امتناع .

ثانياً : " من أجل اختصاص " هل " بالتصديق فإنه يَقبُح استعمالها فى التراكيب التى يغلب فيها العلم بحصول النسبة ، وذلك كالتراكيب التى يتقدم فيها المعمول على الفعل سواء كان ذلك المعمول مفعولاً نحو : " هل محمداً ضربت " أو غير المفعول كالجار والمجرور نحو : " هل فى الدار جلست ، والحال نحو : " هل راكباً جئت " ، والظرف نحو : " هل عندك قام عمرو " فهذه التراكيب وما يماثلها لا يصح استعمال هل فيها لأن تقديم المعمول على الفعل فيها يستدعى حصول التصديق للمتكلم ويقتضى أن يكون المتكلم عالماً بوقوع الفعل ، ومن ثم يكون الاستفهام " بهل " حينئذ من قبيل طلب تحصيل الحاصل وهو محال لأنه استفهام عن شئ معلوم أصلاً .

وإنما قَبُح فقط استعمال " هل " فى مثل هذه التراكيب السابقة ولم يمتنع استعمالها لجواز أن يكون الاسم المتقدم مفعولاً لفعل محذوف وهو قبيح لأن فى هذا التقدير منع للفعل الظاهر من العمل بلا شاغل أى ضمير أما إذا اتصل الفعل بالشاغل الذى هو الضمير فإن هذا لا يَقُبح نحو قول القائل " هل محمداً ضربته " (١) .

" لجواز تقدير الفعل المفسَّر قبل " محمد " فيكون الأصل : " هل ضربت محمداً ضربته " لأن الأصل تقديم العامل على المعمول وحينئذ فلا يستدعى حصول التصديق بنفس الفعل لأن السؤال حينئذ يكون عن أصل ثبوت الفعل لا عن المفعول بعد العلم بأصل الثبوت وحيث تحقق لا يستدعى

---

(١) مواهب الفتاح بتصرف ٢/٢٥٧ .

حصول التصديق فتكون " هل " لطلبه فيحسن ولا يقبُح نحو قولك : " هل محمداً ضربته " (١) .

ثالثاً : أن " هل " بحكم وضعها (*) تخلص المضارع للاستقبال كالسين وسوف وذلك بعد أن كان محتملاً للاستقبال وللحال لأن حصول الأمر المستفهم عنه يجب أن يكون فى الاستقبال إذ لا يستفهم عن شئ واقع فى الحال لأنه أصبح معلوماً بالوقوع وعلى هذا لا يصح أن تستعمل " هل " فيما يراد به الحال كما فى قولك " هل تضرب محمداً وهو أخوك " ووجه عدم الصحة أن هل للاستقبال والفعل الواقع بعدها هنا حالى فَقَدْتَنَا فَى الأمران والدليل على أن الفعل هنا حالى أن جملة " وهو أخوك " حالية مضمونها حاصل فى الحال فلو دخلت " هل " على الحاصل فى الحال لحدث التنافى لأنها إذا دخلت على مضارع خلصته للاستقبال " (٢) .

وذلك بخلاف الاستفهام عن الحال بالهمزة فإنه يصح أن يستفهم بها عنه وذلك لأن الهمزة " تصلح لإنكار الفعل الواقع فى الحال لأنها ليست مخصصة للمضارع بالاستقبال " (٣) فيصح أن نقول " أتضرب محمداً وهو أخوك " ؟ .

وعليه ورد قوله تعالى : ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) حاشية الدسوقى ومواهب الفتاح بتصرف ٢/٢٥٧ ، ٢٥٨ .

(*) وهو تخصيص المضارع بالاستقبال أى تخليصه وتصييره له .

(٢) حاشية الدسوقى بتصرف ٢/٢٦٢ ، ٢٦٣ .

(٣) حاشية الدسوقى ٢/٢٦٣ .

(٤) الأعراف من الآية : ٢٨ .

فالمراد هنا إنكار القول الحالى لا الاستقبالى ولا يصح استعمال " هل " فى مثل هذه المواضع لما تقدم .

رابعاً : ولما كانت " هل " تختص بطلب التصديق ، وتخليص المضارع للاستقبال فقد قوى اتصالها ودخولها على الفعل دون الاسم سواء كان الفعل مذكوراً نحو قولك : " هل يأتى محمد " ؟ أو مقدراً نحو : " هل محمد يأتى " ؟ وذلك لأن التصديق هو الحكم بالثبوت أو الانتفاء ، والنفى والإثبات إنما يتوجهان إلى المعانى والأحداث التى هى مدلولات الأفعال لا إلى الذوات وهى الحقائق التى هى مدلولات الأسماء " (١) .

وكذلك فإن هل بتخليصها المضارع وتصييره للاستقبال صار لها مزيد ارتباط واختصاص بالفعل فإذا استعملت " هل " فى أى تركيب معدولاً بها عن الجملة الفعلية إلى الاسمية كان ذلك بقصد نكتة بلاغية وهى إبراز ما سيوجد فى صورة الحاصل الثابت الموجود لشدة العناية وتحققه والاهتمام بأمره .

فقولنا مثلاً " هل محمد منطلق " دون قولنا " هل ينطلق محمد " أى بالعدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية يدل على كمال اهتمامنا بانطلاق محمد وعنايتنا التامة بحصول هذا الإنطلاق وتحققه فهذه الدلالة اللطيفة لا توجد فى قولنا " هل ينطلق محمد " وذلك لأن الجملة الاسمية تدل على الثبوت والدوام ، والفعلية تدل على التجدد والحدوث .

ولهذا فإن قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ (٢) الذى عُدِلَ فيه عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية " أدل على طلب الشكر من قولنا " فهل

---

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ٢٦٨/٢ .

(٢) الأنبياء من الآية : ٨٠ .

تشكرون " بإدخال " هل " على الفعل تحقيقاً ، وكذا من قولنا " فهل أنتم تشكرون " بإدخالها على الفعل تقديراً وذلك لأن إبراز ما سيتجدد وهو الفعل فى قالب الثابت المستقر أدل على كمال العناية بحصوله وتحققه " (١) .

وكذا فقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ أدل على تأكيد طلب الشكر من أن يقال " أفأنتم شاكرون " بإدخال همزة الاستفهام على الجملة الاسمية وإن كان هذا القول للثبوت أيضاً لكونه جملة اسمية وذلك لأن " هل " أقوى طلباً للفعل من الهمزة فترك الفعل مع " هل " أدل على كمال العناية بحصول ما سيتجدد بخلاف الترك مع الهمزة وذلك لأن الفعل لازم بعد " هل " بخلافه بعد الهمزة " (٢) .

خامساً : " هل " لا تدخل على المنفى (٣) فلا يقال مثلاً:" هل لم يفهم على "، ولا على المضارع الذى هو للحال فلا يجوز أن تقول : " هل تحتقر علياً وهو شجاع " ولا على " إنَّ " فلا يصح أن تقول : " هل إنَّ الأمير مسافر " ولا على الشرط " فلا يقال : " هل إذا زرتك تكرمنى " ولا على حرف العطف فلا يقال : " هل فيتقدم أو هل ثم يتقدم " (٤) ولا على اسم بعده فعل فلا يجوز أن تقول : " هل بشراً منا واحداً نتبعه " بخلاف الهمزة فإنها تدخل على جميع ما ذُكر " (٥) .

... هذا وقد ذكر بعض البلاغيين أن "هل" تنقسم إلى : بسيطة ومركبة.

---

(١) عروس الأفراح ، وشرح السعد ضمن شروح التلخيص بتصرف ٢/٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(٢) شرح السعد ، ومواهب الفتاح وحاشية الدسوقى ٢/٢٧٠ .

(٣) لأن هل فى الأصل بمعنى قد وهى لا تدخل على المنفى .

(٤) لأن " هل " لا تقع قبل الحرف العاطف بل تقع بعده دائماً .

(٥) جواهر البلاغة ص ٧٤ .

فهل البسيطة : " هى التى يطلب بها وجود الشئ أوْلاَ وجوده كقولنا " هل " الحركة موجودة أوْ لاَ موجودة .

وهل المركبة : وهى التى يطلب بها وجود الشئ لشئ أوْ لا وجوده كقولنا : " هل الحركة دائمة " أوْ لا دائمة فإن المطلوب وجود الدوام للحركة أوْ لا وجوده لها .

ويجاب عن كلا المثالين " بنعم " فى الإثبات ، " وبلا " فى النفى ولما اعتبر فى المسئول عنه فى هل الأولى " البسيطة " وجود نفس الشئ ، وفى الثانية " المركبة " وجود نفس شئ لشئ آخر سميت الأولى بسيطة لبساطة المسئول عنه فيها ، والثانية مركبة لوجود ما اعتبر فى الأولى فيها وزيادة (١) .

وبهذا " فهل " البسيطة يسئل بها عن شئ واحد وهو " الوجود " أو عدمه لشئ ما كالحركة .

والمركبة يسئل بها عن شئ زائد لشئ موجود كالدوام أو عدمه للحركة كما مثلنا .

أما بقية أدوات الاستفهام الأخرى وهى : ما ، ومن ، ومتى ، وأيان ، وكيف ، وأين ، وأنى ، وكم ، وأى . فيطلب بها التصور فقط كما سبق وبهذا يكون الجواب عنها بتعيين المسئول عنه .

هذا وقد " درج علماؤنا على أن يذكروا – غالباً – لكل أسلوب استفهامى ، معنى بلاغياً كالاستبطاء أو التمنى أو الإنكار التوبيخى أو التكذيبى أو التقرير وما إليها ، يقصدون – رحمهم الله – أن هناك معنى أو

---

(١) شرح السعد ومواهب الفتاح ٢/٢٧١ ، ٢٧٢ .

إحساساً مسيطراً هو الأصل ، ولا ينفى معانى أخرى متولدة ممتدة متصـــلة بالمعنى الأصلى " (١) .

والمعانى البلاغية للاستفهام إنما تستفاد من سياق الكـــلام ومقاماتـــه ، وتُفهم من قرائن الأحوال كما ذكر البلاغيون .

والنبى الكريم – ﷺ – طالما استعمل أسلوب الاســـتفهام فـــى كلامـــه الشريف حيث جعله وسيلة قوية لتقرير بعض المعانى وتثبيتها فى النفوس ، أو لإنكار ونفى ما صدر عن المخاطبين أو لإثارة انتبـــاههم وتشـــويقهم أو لاستدراجهم ليصل إلى تحديد بعض المفاهيم وتوضيح ما خفى عليهم .. إلى غير ذلك من الأغراض البلاغية التى أرادها ﷺ من أساليبه الاستفهامية وبعد ففى الصفحات الآتية – بمشيئة الله تعالى – أحاديث شريفة تشتمل على الكثير من الأساليب الاستفهامية المختلفة التى ســـنحاول – بعـــون الله ســـبحانه – إيضاح بعض معانيها البلاغية ، وما يتعلـــق بهـــذه المعـــانى مـــن أســـرار ولطائف ، فضلاً عن تجلية بعض مقاصده ﷺ من تلك الأساليب الاستفهامية .

---

(١) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية فى القرآن الكريم أ.د / صبّاح دراز ص ١٢٥.

الحديث الأول

يا أبا ذَرٍّ أعيَّرتَهُ بأمِّه ؟

عن المعْرُورِ بن سويد قال : لَقِيتُ أبا ذَرٍّ وعليه حُلَّه وعلى غُلامِهِ حُلَّة ، فسألتُهُ عن ذلك فقال : إنى سَابَبتُ رجلاً فَعيَّرتُهُ بأُمِّهِ ، فقال لى النبىُّ – ﷺ –" يا أبا ذَرٍّ ، أَعَيَّرتَهُ بأُمِّهِ ؟ إنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّة . إخْوَانُكُم خَوَلُكُمْ ، جَعلهُمُ اللهُ تحتَ أيدِيكُمْ . فمَنْ كان أخُوهُ تحتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مما يأكُلُ ، ولْيُلْبِسْهُ مما يلبسُ ، ولا تُكلِّفوهُمْ ما يَغْلِبُهُم ، فإنْ كَلَّفتُموهُمْ فأعِينوهم "([1]).

= = = = = =

الإحسان إلى العبيد والرفق بهم من الفضائل السامية التى أمرنا الله – عز وجل – بها فى كتابه العزيز حيث يقول سبحانه : ﴿ وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴾ ([2]) .

ولقد أكد هذا الحديث الشريف على تلك الفضيلة السامية حيث أظهر النبى – ﷺ – رفضه الشديد للسبِّ والتعيير الذى تعرض له بلال من أبى ذر الغفارى – رضى الله عنهما – وذلك حين عيَّره بسواد أمه " كما جاء فى رواية أخرى أن أبا ذر قال له : يا ابن السوداء " ([3]) وهذا الرفض لا يرتبط بفرد أو بشخص معين ، وإنما يتعلق بقضية أراد النبى – ﷺ – أن يغرسها فى نفوس المسلمين ألا وهى حسن معاملة العبيد وعدم سبِّهم وتعييرهم

([1]) فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى – ط / الريان للتراث ١٠٦/١ .

([2]) النساء الآية : ٣٦ .

([3]) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ١٠٨/١ .

بوالديهم اتباعاً للمبدأ الخالد الذى قرره الحق عز وجل بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١) وكذا رسوله الأعظم - ﷺ - فى خطبته الشريفة التى جاء فيها : " يأيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى " (٢) .

وحدَّةُ الرفض النبوى لسلوك أبى ذر الغفارى تظهر - بوضوح - فى عبارة الاستفهام " أعيرته بأمه " ؟ وهو استفهام إنكارى توبيخى مسلط على تعيير أبى ذر بلالاً بأمه فالنبى - ﷺ - ينكر على أبى ذر ما صدر منه وينفى بشدة هذا السلوك المشين الذى نال من أم بلال لأن الإنكار - كما هو معلوم - يعنى النفى الشديد ، وكأن النبى - ﷺ - يريد أن يقول لأبى ذر : ما كان ينبغى أن يصدر هذا التعيير منك ! بل ويلومه ﷺ ويوبخه حتى يرجع إلى نفسه فيخجل مما فعله لأن السبَّ والتعيير من المعاصى العظيمة التى نهى الإسلام عنها بشدة بدليل قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٣) .

" وتُرك العاطف بين جملة " أعيرته بأمه " وجملة " إنك امرؤ فيك جاهلية " لكمال الاتصال بينهما فنُزلت الجملة الثانية من الأولى منزلة التأكيد

---

(١) الحجرات من الآية : ١٣ .

(٢) مسند الإمام أحمد - ط / الحلبى ٥/٤١١ .

(٣) الحجرات الآية : ١١ .

المعنوى من متبوعه فى إفادة التقرير مع اختلاف فـــى اللفـــظ " (١) أى أن السبَّ والتعيير ولا يُعد إلا من خصال الجاهلية وأخلاقهم ، ويجوز أن يكون الفصل بين الجملتين السابقتين راجعاً إلى اختلافهما خبراً وإنشاءَ لفظاً ومعنى فجملة " أعيرته بأمه " إنشائية لفظاً ومعنى لأنها استفهام ، وجملة " إنك امرؤ فيك جاهلية " خبرية لفظاً ومعنى ، والفصل بينهما لا يوهم خـــلاف المعنـــى المقصود من الكلام ، وهذا ما يسميه البلاغيون بكمال الانقطاع بـــلا إيهـــام خلاف المقصود .

" وإنما وبَّخه ﷺ بذلك – على عظيم منزلته عنده – تحذيراً لـــه عـــن معاودة مثل ذلك لأنه وإن كان معذوراً بوجه من وجوه العذر لكـــن وقـــوع ذلك من مثله يستعظم أكثر ممن هو دونه " (٢) وقوله ﷺ " إنك امرؤ فيـــك جاهلية " من صور إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر حيث أُنزل أبو ذر الخالى الذهن من الحكم منزلة المنكر فخُوطب بكلام مؤكد مع أنه غيـــر منكر وذلك للمبالغة فى توكيد الخبر له وتقريره فى ذهنه حتى لا يعود إلـــى مثل ما فعله وإلا كان من أهل الجاهلية .

ثم يقرر النبى – ﷺ – إنكاره التوبيخى بقوله " إخْوَانُكُم خَوَلُكُمْ ، جَعلهُمُ اللهُ تحتَ أيدِيكُمْ . فمَنْ كان أخُوهُ تحتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مما يأكُلُ ، ولْيُلْبِسْهُ ممـــا يلبسُ ، ولا تُكلِّفوهُمْ ما يَغْلِبُهُم ، فإنْ كَلَّفتُموهُمْ فأعِينوهم " كما أن فـــى هـــذا الكلام الشريف دلالة واضحة على غاية تأكيده لفضيلة الإحسان إلى العبيـــد وحسن معاملتهم ، والرفق بهم حتى يعم الرفق والتراحم ، وتســـود المـــودة والمساواة بين السادة ومن يقومون على خدمتهم .

---

(١) عمدة القارئ ٢٠٨/١ بتصرف يسير .

(٢) فتح البارى ١٠٧/١ .

وأُوثر التعبير بالأفعال المضارعة " فليطعمه ، وليلبسه ، ولا تكلفوهم " لاستحضار تلك الفضيلة السامية ، والتنبيه على الالتزام بهـا ، وضـرورة استمرارها ووجودها فى كل جيل .

واقتران المضارعين " فليطعمه ، ليلبسه " بلام الأمر يبرز كذلك مدى حرصه عليه السلام على الإحسان بالعبيد وعدم الترفع عليهم .

وكأنه ﷺ يأمر كل سيد بأن يُطعم خادمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا يُفضل نفسه فى العيش عليهم .

وقُيد هذا الإطعام والإلباس بقوله " مما يأكل " ، " مما يلبس " لأن سادة العرب وغيرهم كان من عادتهم أن يكون طعام وثياب خدمهم دون طعـامهم وثيابهم . " وإنما قال ﷺ " مما يأكل " ولم يقل " مما يَطْعَم " كما فى قولـه : " وَلْيُلْبِسْهُ مما يلْبسُ " لأن الطَعَم يجئ بمعنى الذوق يقال : طعم يطعم طعمـاً إذا ذاق أو أكل قال الله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ أى من لم يذقه فلو قال مما يطعم لتوهم أنه يجب الإذاقة مما يذوق وذلك غير واجـب " (١) كما أنه قال " فَلْيُطْعِمْهُ " ولم يقل " فليؤكله " للإشارة إلى أنه لابد من إذاقتـه مما يأكل وإن لم يُشبعه من ذلك الأكل " (٢) .

---

(١) عمدة القارئ ١/٢٠٨ .

(٢) السابق نفسه ١/٢٠٨ .

الحديث الثانى

آلصبُّح أربعاً ، آلصبُّح أربعاً ؟

عن حَفص بن عاصمٍ قال : سمِعْتُ رجُلاً من الأُزدِ يقالُ له مالكُ بنُ بُحينةَ قال : إنَّ رسُولَ الله - ﷺ - رأى رَجُلاً وقد أُقيمَت الصلاةُ يُصَلِّى ركعتينِ ، فلما انصَرفَ رسولُ الله ﷺ لاثَ (١) بهِ النَّاسُ ، وقال لَهُ رسولُ الله - ﷺ - : آلصبُّحَ أربعاً ، آلصبُّحَ أربعاً (٢) .

= = = = = =

صلاة النفل فى المسجد حال صلاة الفرض أمر مخالف للسُّنَّة ، ولهذا نهى عنه النبى - ﷺ - بدليل قوله عليه السلام : " إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة " (٣) أى المفروضة فالنفى فى قوله عليه السلام " فلا صلاة " يحتمل أن يكون بمعنى النهى أى فلا تصلوا حينئذ ، ويؤيده ما رواه البخارى فى التاريخ والبزار وغيرهما من رواية محمد بن عمار عن أنس مرفوعاً وفيه " ونهى أن يصليا إذا أقيمت الصلاة " (٤) .

وفى هذا الحديث الشريف نهى كذلك عن نفس الأمر حيث رأى النبى - ﷺ - رجلاً (٥) يصلى ركعتين وقد أقيمت صلاة الصبح فلما فرغ الرجل قال له ﷺ " آلصبح أربعاً " " آلصبح أربعاً " ؟ بهمزة ممدودة فى أوله ، "

---

(١) لاثَ بهِ النَّاسُ : أى اجتَمعُوا حَوْلَهُ . اللسان - ط / دار المعارف مادة : لَوثَ .

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى - ط / الريان للتراث ١٠٦/١ .

(٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوى - ط / دار الحديث ٢٩٣/١ .

(٤) فتح البارى ١٧٥/٢ .

(٥) هو عبد الله الراوى . فتح البارى ١٧٦/١ .

والصبح " منصوب بإضمار فعل تقديره " أتصلى الصبح " ؟ وأربعاً منصوب على الحالية أو البدلية " (١) .

وفى قوله ﷺ " آلصبح أربعاً " ؟ استفهام إنكارى يتضمن معنى التنبيه فالنبى – ﷺ – ينكر على هذا الرجل انشغاله بصلاة النافلة فى وقت صلاة الصبح ، وينفى قضاءها فى المسجد عند إقامة صلاة الفرض لأن هذا خطأ فى السُّنَّة أراد النبى – ﷺ – تنبيه هذا الرجل إليه ليصححه حتى لا يكرره مرة أخرى إذ لا تنفل حال صلاة الفرض كما قرر ذلك – ﷺ – بقوله : " إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة " .

وفى تكراره ﷺ لهذا الاستفهام تأكيد للإنكار وتقرير له حتى يمتثل المصلون بهذا الأمر ويتيقنوا من أن ترك التنفل فى المسجد عند إقامة الصلاة المفروضة وتداركها بعد قضاء الفرض إنما هو أقرب إلى اتباع السُّنَّة المشرفة والتأسى به ﷺ عملاً بقوله عز وجل : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٢) .

ولعل الحكمة من هذا الإنكار المؤكد تكمن فى " أن يتفرغ المصلى للفريضة من أولها فيشرع فيها عقب شروع الإمام وأن المحافظة على مكملات الفريضة أَوْلَى من التشاغل بالنافلة " (٣) لئلا يفوته ثواب الفريضة فى الجماعة .

---

(١) فتح البارى ١٧٦/٢ بتصرف يسير .
(٢) الأحزاب الآية : ٢١ .
(٣) فتح البارى ١٧٦/٢ بتصرف يسير .

الحديث الثالث

إثْمِ مَنْ رفَعَ رأسَهُ قبْلَ الإمَامِ

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – قال : " **أما يَخْشَى أحَدُكم – أوْ لاَ يَخْشَى أحَدُكم – إذا رفَعَ رأسَهُ قَبْلَ الإمام أنْ يَجْعَلَ اللهُ رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارَ ، أو يَجْعَلَ اللهُ صُورتَهُ صُورَةَ حِمَارٍ** " (١) .

= = = = = =

من شروط صحة الصلاة أن يتبع المأموم إمامه فى جميع أحوالها فلا يركع حتى يركع الإمام ولا يرفع حتى يرفع ولا يسجد حتى يسجد ولا يجلس حتى يجلس .. إلخ وإلا بطلت صلاته لأن النبى – ﷺ – قال " إنما جُعل الإمام ليُؤْتَّم به فإذا ركع فاركعوا ، وإذا رفع فارفعوا ... الحديث (٢) " وكذلك فإن هذا الحديث الشريف يدعو إلى متابعة الإمام فى الصلاة وعدم تقدم المأموم عليه فى الرفع من الركوع أو السجود حتى لا يجعل الله رأسه رأس حمار أو صورته صورته كما قال ﷺ .

" وأما التقدم على الإمام فى الخفض فى الركوع والسجود فيلتحق به من باب الأولى لأن الاعتدال والجلوس بين السجدتين من الوسائل والركوع والسجود من المقاصد ، وإذا دل الدليل على وجوب الموافقة فيما هو وسيلة فأولى أن يجب فيما هو مقصد (٣) .

ونظراً لشدة حرصه – ﷺ – على أمته وخشيته من تعرضها لهذا العقاب المهين وهو " مسخ الهيئة فقد أتى النبى – ﷺ – بأداة الاستفتاح " أما " التى تثير انتباه المخاطبين ليهتموا بما يذكر بعدها ، وعقبها بالفعل المضارع

---

(١) فتح البارى ٢١٤/١ .

(٢) فتح البارى ٢٠٤/٢ .

(٣) السابق نفسه ٢١٥/٢ .

" يخشى " لتقرير الخشية والمهابة فى نفوس المخاطبين فقد ذهب العلمـــاء " إلى أن " أما " حرف للتنبيه إلى ما يذكر بعدها لتقريره فـــإذا دخلـــت علـــى الجملة الفعلية فتكون للعرض الدال على الاهتمام بالمعروض (١) .

والاستفهام فى قوله عليه السلام " أما يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام ... حمار " استفهام إنكارى توبيخى يتعلق هنا بفعل واقع فى الحال أو بصدد الوقوع فى المستقبل بمعنى أنه لا ينبغى للمأموم عمـــل هـــذا الفعـــل والغرض منه جذب انتباه المخاطبين حتى يرتدعوا عن فعل ما همُّوا به وهو سبق إمامهم فى الصلاة .

والتوبيخ لم يتحقق فى هذا الإنكار إلا من تصوير رأس مَـــنْ يســـبق إمامه فى الصلاة برأس حمار أو جَعْل صورته صورته بأن يمسخ الله عـــز وجل هيئة من يسبق إمامه ويحولها إلى هذه الهيئة المهينة الحقيرة ، وما ذلك على الله بعزيز .

وهذا التصوير يفيض بكل معانى التحقير والتوبيخ والتقبيح لأن التشبيه بالحمار أو بما يتصل به لا يكون إلا تقبيحاً ، وذلك سر اختياره دون ســـائر الحيوان " ومن ثمَّ فإن هذا الإنكار " يلزمه التوبيخ ليزيد بذكر العقوبة علـــى الأمر المحظور تأكد لزوم المرغوب ، فخشية المصلى أن يجعل رأسه رأس حمار أو صورته تؤكد فى نفسه لزوم متابعة إمامه وعدم سبقه " (٢) .

وهكذا يريد النبى – ﷺ – من خلال هذا الاستفهام أن يلفت المأمومين إلى أمر قد يعدونه هيناً وهو عظيم الخطر كبير الأثر لكونه يقتضى التوعـــد بالمسخ إلى هيئة الحمار وما أشهدها من عقوبة ولذا يلزم على كل مأموم أن يأخذ حذره من عدم سبق إمامه فى الصلاة .

---

(١) جواهر الأدب ص ١٦٨ ، وشرح المفصل ١١٥/٨ .

(٢) الحديث النبوى من الوجهة البلاغية – د / عز الدين السيد ص ١٢٢ .

الحديث الرابع

أفَلاَ أكونُ عبداً شكُوراً ؟

عن زياد بن علاقة قال : سمِعتُ المُغيرةَ – رضى الله عنه – يقول : " إنْ كان النبىُّ – ﷺ – لَيقُومُ – أو لَيُصلىِّ – حتى تَرِمُ قدماهُ – أو ساقاهُ فيُقالُ له ، فيقولُ : أفَلاَ أكونُ عبداً شكُوراً ؟ " (١) .

= : = : = : =

كان النبى – ﷺ – يداوم على قيام الليل ، ويكثر فيه من صلاة التنفل حتى تنتفخ قدماه أو سقاه الشريفتان كما ورد فى هذا الحديث الشريف .

" وإنما ألزم النبى – ﷺ – نفسه بذلك لعلمه بعظيم نعم الله تعالى عليه فبذل غاية مجهوده فى عبادته سبحانه ليؤدى بعض شكره مع أن حقوق الله عز وجل أعظم من أن يقوم بها العباد فقيل له يا رسول الله أتفعل هذا وقد جاءك من الله أن قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر " ؟ (٢) أى أتشق على نفسك فى العبادة وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فأجابهم عليه السلام بقوله : " أفلا أكون عبداً شكوراً " ؟ وهو جواب اشتمل على استفهام يفيد التقرير والامتنان أى تقرير النبى – ﷺ – لعبوديته لله عز وجل وما تقتضيه من التزام كامل بطاعته وحُسن عبادته فضلاً عن شكره لله – سبحانه وتعالى – لامتنانه وتفضله عليه بكريم نعمه وعظيم آلائه وعلى رأسها نعمة المغفرة لما تقدم من ذنبه وما تأخر .

وشكر الله تعالى إنما يكون باجتهاد العبد فى طاعته والمداومة على أداء عبادته على الوجه الأكمل ، وهكذا كان حال النبى – ﷺ – فى طاعته

---

(١) فتح البارى ٣/١٩ .

(٢) عمدة القارى ٧/١٨٠ .

لربه جل شأنه – حيث جهد نفسه بالعبادة وألزمها بكثرة الصلاة وقيام الليل حتى تورمت قدماه الشريفتان " لأن حال النبى – ﷺ – كانت أكمل الأحوال فكان لا يمل من عبادة ربه وإن أضر ذلك ببدنه " (١) .

والنبى – ﷺ – لم يفعل ذلك إلا شكراً لله – جلَّ وعلا – ، واعترافاً بمنِّه وفضله الكبير عليه كما قرره بذلك الله جل شأنه بقوله : ﴿ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ (٢) .

وأُوثر التعبير بصيغة المبالغة " شكور " للإشارة إلى زيادة شكره ﷺ لمولاه عز وجل وكثرة حمده له لأن " شكور " تعنى كثرة الشكر لله تعالى " فمن كثر شكره سمى شكوراً ومن ثمَّ قال سبحانه وتعالى " وقليل من عبادى الشكور " (٣) أى " المتوفر على أداء الشكر ، والباذلُ وسعَه فيه " (٤) .

" والفاء فى قوله " أفلا أكون " للسببية وهى عن محذوف تقديره " أأترك تهجدى فلا أكون عبداً شكوراً والمعنى أن المغفرة سبب لكون التهجد شكراً فكيف أتركه ؟ " (٥) .

أى أنه ﷺ لم يحمله التفضل بالمغفرة على ترك الجدِّ والاجتهاد فى العبادة قياماً بالشكر لله عز وجل .

ولاشك أن مراد النبى – ﷺ – ما كان يتحقق من خلال هذا الحديث الشريف على هذا النحو البليغ المؤكد بالتعبير المجرد أى بغير أسلوب الاستفهام .

---

(١) فتح البارى ٣/٢٠ .

(٢) الإسراء من الآية : ٨٧ .

(٣) فتح البارى ٣/٢٠ .

(٤) الكشاف ط / دار الريان للتراث ٣/٥٧٣ .

(٥) فتح البارى ٣/٢٠ .

الحديث الخامس

ما مِن مولود إلا يُولَدُ على الفِطْرَةِ

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – : " ما مِن مَولود إلا يُولَدُ على الفِطْـرَةِ ، فـأبَواهُ يُهَوِّدانِـه أو يَنَصِّـرانِه أو يُمَجِّسانه ، كما تُنْتَجُ البَهيمةُ بَهيمـةً جمعـاءَ هـل تُحِسُّـونَ فيهـا مـن جَدعاءَ " (١)؟ (٢).

= = = = = =

كل مولود من بنى آدم يولد على فطرة الإسلام كمـا ورد فـى هـذا الحديث الشريف ولقد اقتبس النبى – ﷺ – هذا الحكم من قوله عز وجل : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ (٣).

حيث أجمع المفسرون وأهل العلم على أن المراد " بالفطرة " الإسلام ، ويستمر المولود على تلك الفطرة حتى يتغير عنها ويتحول إلى غيرها مـن ملل الكفر والشرك وذلك بسبب أبويه إما بتعليمهما إياه أو بترغيبهما فيـه ، وكونه تبعاً لهما فى الدين يقتضى أن يكون حكمه حكمهما " (٤) .

ولتقريب هذه الحالة وتقريرها فى نفوس المخاطبين نرى النبى – ﷺ – يمثلها بالبهيمة التى تولد كاملة الخلق سليمة الأعضاء ، وبعـد ذلـك يقطـع أصحابها بعض أعضائها ويشوهون خلقها بعد أن كانت خالية مـن العيـب والنقص .

---

(١) الجَدْعُ : القَطْعُ ، وجَدْعاءُ أى مَقْطُوعةُ الأُذُنِ . اللسان مادة : جَدَعَ .

(٢) فتح البارى ٣/٢٦٠ .

(٣) الروم من الآية : ٣٠ .

(٤) فتح البارى ٣/٢٩٤ .

وهى صورة حسية قصد بها النبى – ﷺ – إبراز الأمر المعقــول أو " المعنوى " فى صورة محسوسة مشاهدة للمخاطبين حتى يتقــرر المعنــى ويتمكن فى نفوسهم ، وهذا التمثيل " يشير إلى الفساد الحاصل بفعل الإنسان فى الشئ الذى أحسن الله خلقه ، حتى يحذر كل امرئ مصير عدوانه علــى الفطرة فلا يقدم عليها جباراً متعسفاً بل متئداً حكيماً " (١) .

ثم يدلل النبى – ﷺ – على سلامة هذه البهيمة واكتمال أعضائها عنــد ولادتها فيقول : " هل تحسون فيها من جدعاء " ؟ وهــو اســتفهام غرضــه التقرير بالنفى أى تقرير هؤلاء المخاطبين بأنهم حين ينظــرون إلــى هــذه البهيمة لا يحسون فيها من جدعاء أو نقص يشوه خلقها ، وكأن النبى – ﷺ – يريد من خلال هذا الاستفهام أن يقرر لهم سلامتها الكاملة وخلوها التــام من أى عيب أو نقص فى جسمها حتى أن المخاطبين عنــد رؤيــتهم لهــذه البهيمة لا يجدون فى أنفسهم جواباً عن هذا الاستفهام النبــوى إلا الجــواب بالنفى فيقولون : لا نحس فيها من جدعاء فيكون جوابهم دليلاً على إذعــانهم وتصديقاً على اقتناعهم التام بهذا الحكم المقرر وهو أن كل مولود من بنــى آدم يولد على فطرة الإسلام التى لا نقص فيها ولا تشويه مثله كمثل البهيمة التى وُلِدَت سليمة مكتملة الأعضاء .

ونلاحظ أن الاستفهام فى هذا الحديث الشريف قد وقع فــى موضــعه المناسب لمقام الكلام حيث جاء فى سياق جملة التمثيل تضاعف من تقريــر معناها وتأكيد مغزاها بحيث لا يجد المخاطَب – بعد ذلك – سبيلاً إلى تكذيب هذا الحكم أو عدم قبوله .

---

(١) الحديث النبوى من الوجهة البلاغية ص ٢٣٨ .

الحديث السادس

وأيُّكُم مِثْلِى ؟

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : " نـهَىَ رسُولُ الله – ﷺ – عَنِ الوِصَالِ (١) فى الصَّوْمِ ، فقال لَهُ رَجُلٌ من المُسْلمِينَ : إنَّكَ تُوَاصِلُ يـا رسُولَ اللهِ . فقال وأيُّكُم مِثْلِى ؟ إنِّى أبِيتُ يُطْعِمُنى رَبىِّ ويَسْقِينِ . فَلَمَّا أبَوا أنْ يَنْتَهوُا عَنِ الوِصَالِ واصَلَ بِهِمْ يَوْماً ثم يَوْماً ، ثُمَّ رَأَوْا الهِلاَلَ ، فقـال : لَوْ تأَخَّرَ لَزِدْتُكم . كالتَّنْكِيلِ لَهُمْ حينَ أبَوا أنْ يَنْتَهوُا " (٢).

= = = = = =

الوصال فى الصوم يفضى إلى مشقة النفس وضعفها وعدم مواصلتها للعبادة على الوجه الأكمل ، ومن ثمَّ فقد نهى عنه النبى – ﷺ – من خـلال هذا الحديث الشريف وجعله من الخصائص التى ينفرد بها عن كـل أفـراد أمته ، وذلك لكونه على غير هيئتهم أو صفتهم حيث يعطيه الله عز وجل قوة الآكل والشارب فلا يشعر بجوع ولا ظمأ ، وبهذا يواصل صيامه بلا مشـقة ولا نصب .

وفى ذاك يقول ﷺ مخاطباً مَنْ أراد الوصال : " وأيكم مثلى إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقين " وقوله : " وأيكم مثلى " ؟ اسـتفهام " يفيـد التـوبيخ المشعر بالاستبعاد " (٣) .

فالنبى – ﷺ – يريد بهذا الاستفهام إقناع المخاطبين بعدم الوصال لأنهم ليسوا على هيئته أو صفته أو منزلته من ربه عز وجل ، ولـذا يـوبخهم ﷺ

---

(١) الوِصَالُ فى الصوم هو ألاَّ يُفْطِرَ يومينِ أو أيَّاماً . اللسان مادة : وصَلَ .

(٢) فتح البارى ٤/٢٤٢ .

(٣) فتح البارى ٤/٢٤٠ .

على إقدامهم وإصرارهم على الوصال إشفاقاً عليهم وترفقاً بهم مبيناً لهم أن ذلك الأمر إنما هو من خصائصه فقط التى خصَّه الله عز وجل بها حيث جعله على هيئة خاصة لا تشعر بجوع ولا ضعف لما يفيض عليه سبحانه بما يسد مسد الطعام والشراب ، ومن هنا فلا يجب الوصال على أحد من أمته لما يترتب عليه من الجوع الشديد والضعف والملل فى العبادة وهو مما يتنافى مع يسر الإسلام وسماحته ولما كان الأمر كذلك فقد استبعد تماماً - ﷺ - أن يكون هؤلاء المخاطبون على هيئته نفسها أو صفته وكأنه يقول لهم : كيف تواصلون والحال أنكم لستم مثلى ، هيئة أو صفة وهذا إنما يدل على كمال رحمته وغاية رفقه بهم .

وقوله ﷺ " إنى أبيتُ يطعمنى ربى ويسقين " تعليل لهذا الاستفهام وبيان مؤكد لاختصاصه ﷺ فقط بالوصال دون سائر أمته لأنه ليس كأحدٍ منهم .

الحديث السابع

لا تُحْتَلَبُ مَاشِيَةُ أحَدٍ بغَيْرِ إذْنِه

عن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – أنَّ رسُــولَ الله – ﷺ – قال : " لا يَحْلُبَنَّ أحَدٌ ماشيةَ امرئٍ بغيْرِ إذْنِــه ، أيُحــبُّ أحَــدُكُم أنْ تُــؤْتى مَشربتُهُ فَتُكْسَر خِزانَتُهُ فيُنْتَقَلَ طَعَامُهُ ؟ فإنَّما تَخزُنُ لهم ضُروعُ ماشِــيَتهم أُطْعماتِهم ، فلا يَحْلُبَنَّ أحَدٌ ماشِيةَ أحَدٍ إلا بإذْنِه " (١).

= = = = = =

فى هذا الحديث الشريف نهى مؤكد عن أن يحتلب أحد مواشى النــاس إلا بإذنهم لأن ضروع هذه المواشى بمثابة الخزائن لطعامهم ، والمراد به هنا اللبن " وإنما خص اللبن بالذكر لتساهل الناس فيه فنبَّه به على ما هو أولــى منه " (٢) .

وفى قوله – ﷺ – " أيُحبُّ أحَدُكُم أنْ تُؤْتَى مَشربتُهُ فتُكْسَر خِزانَتُــهُ فيُنْتَقَلَ طَعَامُهُ " ؟ استفهام معناه التقرير بالنفى أى تقرير هؤلاء المخــاطبين بأن أحداً منهم لا يحب أن تؤتى مشربته أىْ ماشيته " فيُحلب لبنها فيؤخذ بذلك طعامه ، وفى إسناد الفعل " يحب " إلى " أحدكم " إشعار كذلك بأن أحداً منهم لا يحب ذلك ، وهكذا يستدرج النبى – ﷺ – مخاطبيه بهذا الســؤال ليلفــت انتباههم ، ويثير نفوسهم حتى إذا كان جوابهم وهو بالنفى قطعاً يكــون قــد استخرج ﷺ من نفوسهم الحكم الصحيح الذى أراده من استفهامه وهــو ألا يحتلب أحد منهم ماشيةَ غيره إلا بإذنه ، لأنه إذا كان لا يحب ذلك لماشــيته فكيف يحبه لماشية غيره ؟

---

(١) فتح البارى ٥/١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢) فتح البارى ٥/١٠٨ .

وبهذا الاستفهام يكون قد حصل السائل، على حكم من المخاطبين يخجلون لو تركوه ولم ينفذوه لأنه حكم منهم على أنفسهم ، ومن ثمَّ يتقرر فى نفوسهم ويتمكن النهى النبوى القاطع عن احتلاب أحد منهم ماشية غيره إلا بإذنه وهنا ملاحظة جديرة بالتأمل وهى أن النبى - ﷺ - عندما بدأ حديثه عن هذا النهى قال ﷺ : " لا يحلبن أحد ماشية امرئ بغير إذنه " وهو عبارة تعلو فيها نبرة التوكيد والتقرير الكامن فى القصر بأقوى الطرق توكيداً وهو " النفى والاستثناء " ، ونون التوكيد الثقيلة ، وكأنه ﷺ قصد بتلك العبارة الحاسمة أن يمهد لهذا النهى بذلك التمهيد القوى المثير الذى يهز نفس المخاطب ويوقظها ليتقرر المعنى لديها ويثبت وتستشعر مدى أهمية وحرمة ما نهى عنه ﷺ حتى إذا استيقن المخاطب ذلك . انتقل المخاطب معه إلى مرحلة دونها حدَّة وقوة هى مرحلة الإيناس والتلطف المتمثلة فى قوله ﷺ " أَيُحبُّ أحَدُكُم أنْ تُؤْتى مَشربتُهُ فتُكْسَر خِزانَتُهُ فيُنْتَقَلَ طَعَامُهُ " ؟ لتسكن نفسه ، وتأنس بالحكم الذى استقر فى باطنها .

كما نلاحظ أن عبارة هذا الاستفهام تضمنت تشبيهاً تمثيلياً رائعاً حيث شبه ﷺ اللبن فى ضرع الماشية بالطعام المخزون المحفوظ فى الخزانة أو الوعاء الذى يُخزن فيه ما يراد حفظه ، وذلك فى أنه لا يحل لأحد أن يحلب اللبن من الضرع أو يأخذ الطعام من الخزانة إلا بإذن صاحبه .

وهذا التشبيه يُعد من تمثيل ما قد يخفى بما هو أرجح منه وأظهر ، وذلك لتقريب الحكم لأفهام المخاطبين وتمكينه فى نفوسهم .

والاستفهام بوقوعه فى سياق هذا التمثيل كان أكثر بياناً ووضوحاً ، وأدل على تصوير الحكم وتقريره وتجليته وإبرازه للمخاطبين .

وجاء قوله ﷺ " فإنما تخزن لهم ضروع ماشيتهم أطعماتهم " تعليلاً مؤكداً لاستفهامه الشريف ، وبياناً صريحاً على أن ضروع المواشى إنما هى خزائن الطعام لأصحابها فلا ينبغى لأحد أن يأخذ منها شيئاً إلا بإذنهم ، ولمزيد من التقرير والتوكيد على تثبيت هذا الحكم فى النفوس وتمكينه فقد أعاد النبى - ﷺ - ذكره فى نهاية حديثه فقال : " فلا يحلبن أحد ماشية أحد إلا بإذنه " .

الحديث الثامن

أليس شهادةُ المرأة مثلُ نصف شهادةِ الرجل ؟

عن أبى سعيد الخُدرى – رضى الله عنه – قال : " خرج رسولُ الله – ﷺ – فى أضحى – أو فى فطر – إلى المصلَّى ، فمَرَّ على النساء فقال : يا معشرَ النساء تصدَّقْنَ ، فإنى أُرِيتُكنَّ أكثرَ أهل النار . فقلن : وبمَ يا رسول الله ؟ قال : تُكثِرْنَ اللعْنَ ، وتكفُرْنَ العَشيرَ ، ما رأيتُ من ناقصاتِ عَقل ودينٍ أذهبَ لِلُبِّ الرجلِ الحازِم من إحدْاكُنَّ . قُلنَ وما نُقَصانُ دِيننا وعَقلِنا يا رسولَ الله ؟ قال " أليسَ شهادةُ المرأة مثل نَصفِ شهادة الرجل ؟ قلن : بلى . قال : فذلك من نقصان عقلِها . أليس إذا حاضتْ لم تُصلِّ ولم تصُمْ ؟ قلن : بلى . قال : فذَلك من نُقصان دِينها " . ([1])

= = = = = =

فى هذا الحديث الشريف يخبرنا النبى – ﷺ – بأن النساء أكثر أهل النار لكونهن يكثرن اللعن والسبَّ ، ويكفرن العشير أى يجحدن حقوق الزوج ، ثم يخاطب ﷺ النساء بقوله " ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن " ، وهذا الوصف يعد كذلك " من جملة أسباب كونهن أكثر أهل النار ، لأنهن إذا كن سبباً لإذهاب عقل الرجل الحازم حتى يفعل أو يقول ما لا ينبغى فقد شاركته فى الإثم وزدن عليه "([2])، وقد أوضح ﷺ لهن المراد بكونهن ناقصات عقل ودين " بقوله " أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل " ؟ وقوله " أليس إذا حاضت لم تُصلِّ ولم تصُمْ ؟ وفى هذين القولين الشريفين استفهامان أُريد بهما التقرير بما دخله

([1]) فتح البارى ١/٤٨٣ .

([2]) السابق نفسه ١/٤٨٤ .

النفى أى حمل المخاطبات وحثهن على الإقرار بما يعــرفن مــن مضــمون الكلام وليس حملهن على الإقرار بما دخلت الهمزة عليه . فالمخاطبات بذلك الكلام الشريف يعلمن مضمونه بدليل جوابهن عن سؤاليه ﷺ بقولهن " بلى " أى نعم يعرفهن أن شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل ، وكذا يعرفن أن المرأة إذا حاضت فلا تصلى ولا تصوم حتى تطهر ، ومن هنا فــإن النبــى - ﷺ - لا يريد من هذين الاستفهامين أن يحيط هؤلاء المخاطبات علماً أو معرفة بهذين الأمرين ، وإنما يريد حملهن على الإقرار بمــا يعــرفن مــن مضمون كلامه ﷺ . بمعنى أن يتقرر فى نفوس هؤلاء المخاطبات ويثبــت الحكم الخاص بشهادة المرأة وهو أن شهادتها - إذا دُعيت للشهادة - تعــدل نصف شهادة الرجل ، وكذا يتقرر فى نفوسهن الحكم بمنــع الحــائض مــن الصلاة والصوم حتى تطهر . ، ومن الواضح أن قوله ﷺ " أليس شــهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل " ؟ يعد بياناً قوياً لقولــه تعــالى : ﴿ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَــانِ مِمَّــن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ﴾ (١) . " لأن الاستظهار بأخرى مؤذن بقلة ضبطها وهو مشعر بنقص عقلها " (٢) كما أن قوله ﷺ " أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم " ؟ يدل على نقصان دينها ، " وليس المقصود بذكر النقص فى النساء لومهن على ذلك لأنه مــن أصــل الخلقة " (٣) .

---

(١) البقرة من الآية : ٢٨٢ .

(٢) فتح البارى ١/٤٨٤ .

(٣) السابق نفسه ١/٤٨٥ .

الحديث التاسع

أتَشْفَعُ فى حدٍّ من حُدود الله ؟

عن عائشة – رضى الله عنها – أن قريشاً أهمتهم المرأةُ المخزوميةُ التى سَرقَت فقالوا : مَنْ يُكَلمُ فيها رسول الله ﷺ ومن يَجتَرئ عليه إلا أُسامةُ حِبُّ رسول الله ﷺ ؟ فكلم رسولَ الله ﷺ فقال : أتَشْفَعُ فى حدٍّ من حدودِ الله ؟ ثم قام فخطبَ فقال : يا أيها الناس إنما ضلَّ من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريفُ تركوه ، وإذا سرقَ الضعيفُ فيهم أقاموا عليه الحدَّ . وأيمُ اللهِ لو أن فاطمة بنت محمدٍ سرقت لقطع محمد يدها " . (١)

= = = = = =

حدود الله تعالى تعنى الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام ، ولقد توعَّد الله – عز وجل – مَنْ يتعداها بدليل قوله جل شأنه : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ . (٢) ، ومن بين حدود الله سبحانه " حدُّ السرقة " الذى ورد هذا الحديث الشريف بشأنه حيث اشتمل على قصة المرأة المخزومية التى سرقت واهتمام قريش بهذا الأمر حتى أنهم طلبوا من أسامة بن زيد – رضى الله عنه – أن يكلم رسول الله – ﷺ – فى شأنها ليشفع لها فكلمه أسامة فرفض النبى – ﷺ – بشدة أن يشفع لهذه المرأة ، ولم يقبل أن يتشفَّع لها أحد حتى ولو كان حِبُّه ومولاه أسامة بن زيد – رضى الله عنه – ، وهذا ما نراه واضحاً فى قوله ﷺ لأسامة : " أتشفع فى حدٍّ من حدود الله " ؟ وهى عبارة حاسمة تعنى رفضه القاطع للشفاعة لهذه المرأة لأن حد السرقة من حدود الله عز وجل التى لا

---

(١) فتح البارى ٨٩/١٢ .

(٢) النساء الآية : ١٤ .

يجب أن يتعداها أحد وإلا كان من الظالمين لقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١) وحدُّ السرقة – كما هو معلوم – يكون بقطع يد السارق أو السارقة ، وكان ذلك معلوماً عند العرب قبل الإسلام ، وقد عقد " ابن الكلبى " باباً لمن قُطع يده فى الجاهلية بسبب السرقة فذكر قصة الـذين سرقوا غزال الكعبة فقطعوا فى عهد عبد المطلب جد النبى – ﷺ – وذكـر من قطع فى السرقة عوف بن عبد بن عمرو بن مخزوم ومقيس بن قيس بن عدى وغيرهما " (٢) .

ثم نزل القرآن الكريم مقرراً ذلك حيـث يقـول جـل فـى عـلاه : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّـهِ وَاللّـهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٣).

والاستفهام فى قوله عليه السلام " أتشفع فى حد من حـدود الله " ؟ اسـتفهام إنكارى يتضمن معنى التنبيه ، فالنبى – ﷺ – ينكر على أسامة تشفعه لهـذه المرأة السارقة ، وينبهه إلى أن ذلك يخالف أمر الشرع لأنه يعد ترخصاً فى تطبيق حد السرقة ، وكان النبى – عليه السلام – لا يرخص فى الحدود .

ولما فهم أسامة ذلك تيقن أنه أثِمَ فقال للنبى – ﷺ – " استغْفِرْ لى يـا رسول الله " كما ورد فى روايتى يونس وشـعيب " (٤) وإيثـار المضـارع " تشفع " لاستحضار الصورة وتسليط الإنكار عليها حتى يكون مـاثلاً فـى الأذهان وكأنه صادر الآن من النبى – ﷺ – ثم استنبط ﷺ من هذا الموقـف

---

(١) البقرة من الآية : ٢٢٩ .

(٢) فتح البارى ٩٠/١٢ بتصرف .

(٣) المائدة الآية : ٣٨ .

(٤) فتح البارى ٩٦/١٢ .

الحاسم أمراً بالغ الأهمية والشأن وهو أن التفريق بين الناس فى إقامة الحدود وتطبيقها فقط على الضعفاء دون الشرفاء إنما يؤدى إلى نشر الضلال والفساد ، وهذا خطر يفضى إلى تدمير المجتمع وهلاكه ، ولذا حذرنا ﷺ منه بقوله : " يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد " .

ويؤكد النبى – ﷺ – على أنه لا محاباة مطلقاً فى إقامة حدٍّ لله تعالى على كل مِنْ وجب عليه دون استثناء حتى ولو كانت ابنته ، وهذا مفاد من القسم " وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها " ، " وإنما خص ﷺ فاطمة ابنته بالذكر لأنها أعز أهله عنده ، ولأنه لم يبق من بناته حينئذ غيرها ، فأراد المبالغة فى إثبات إقامة الحد على كل مكلف وترك المحاباة فى ذلك ولأن اسم السارقة وافق اسمها عليها السلام فناسب أن يضرب المثل بها " (١) ، ويلاحظ أن النبى – ﷺ – قد " بنى كلامه فى العبارة السابقة على التجريد فقال : " لو أن فاطمة بنت محمد " ولم يقل " ابنتى " لأنه جرد من نفسه أباً لفاطمة وهذا معناه عند البلاغيين الدلالة على كمال الأُبوة لأن التجريد يؤتى به للدلالة على المبالغة فى كمال الصفة ".(٢) ، وقوله ﷺ " لقطع محمد يدها " يفيد المبالغة فى إصراره ﷺ وتصميمه على إقامة حدّ السرقة وإنفاذه دون محاباة ، فضلاً عن أن قوله ﷺ " لقطع محمد يدها " يتسق تماماً مع التجريد السابق الذى بُنى عليه الكلام لأنه صار منه ﷺ أب هو محمد النبى – ﷺ – الذى ينفذ حدَّ السرقة حتى ولو كان على ابنته فاطمة رضى الله عنها – أعاذها الله سبحانه من أن تسرق .

---

(١) فتح البارى ٩٧/١٢ .

(٢) شرح أحاديث من صحيح البخارى د / محمد أبو موسى – ط / وهبة ص ٣٢٩ .

وهكذا يريد النبى – ﷺ – أن يعلم أمته كيف يكون العدل ، وكيف تكون المساواة فى إقامة وتطبيق حدود الله عز وجل على كل من وجب عليه بلا استثناء ودون تمييز أو تفريق ؟ .

الحديث العاشر

كيفَ يُفلحُ قومُ شجُّوا نبيَّهم ؟

عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – أنه قال : " شُجَّ النبىُّ – ﷺ – يومَ أُحُدٍ فقال : كيف يُفلحُ قَومُ شَجُّوا نَبيَّهم ؟ فنزلت : " ليس لك من الأمر شئ " . (١)

= = = = = = =

حدث فى غزوة " أُحد " أن النبى – ﷺ – " كُسرت رَباعيتُهُ (٢) وشُجَّ وجهه الشريف فجعل الدم يسيل على وجهه وجعل يمسح الدم عنه " (٣) وهو يقول عليه السلام – كما ورد فى هذا الحديث الشريف – " كيف يُفلحُ قَومُ شَجُّوا نَبيَّهم " ؟ وهذه العبارة اشتملت على استفهام بمعنى النفى والاستبعاد حيث نفى ﷺ أن يتحقق الفلاح لهؤلاء القوم ، وكأنه يقول لهم " لا يفلح قوم شجوا نبيهم كما أنه استبعد حدوث الفلاح لهم لأنهم ليسوا أهلاً له ، وذلك بسبب شجِّهم لوجهه ﷺ حتى سال الدم منه ، وقوم إذا كان ذلك حالهم مع نبيهم فأنَّى يُفلحون ؟!

وهكذا يتخذ النبى – ﷺ – من هذا الاستفهام وسيلة قوية إلى إرشاد هؤلاء القوم إلى أمر مهم ، وهو أن فلاحهم إنما يكون فى عدم الاعتداء على نبيهم وإلحاق الأذى به ، وبغير ذلك لا يتحقق لهم الفلاح مطلقاً ، وكأنه عليه السلام يريد أن يشعرهم بالمنزلة السامية للنبوة ليعلموا فضلها وشرفها ، ويحفظوا

---

(١) فتح البارى ٤٢٢/٧ .

(٢) الرَّباعِيَةُ : هى إحدى الأسنان الأربع التى تلى الثنايا بين الثَّنِية والنَّاب ، وجمعها رباعِيات . اللسان مادة : ربع ، والمراد بكسرها أنها كسرتْ فذهب منها فلقة ولم تقلع من أصلها . فتح البارى ٤٠٢/٧ .

(٣) فتح البارى ٤٢٣/٧ . بتصرف يسير .

قدرها ومكانتها ، ويلزموا أنفسهم بطاعة نبيهم وعدم معصيته إذ أن طاعتهم له إنما تعد طاعة لله عز وجل ، ومعصيتهم له معصية لله جل شأنه لقوله تعالى : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ (١) .

ومن ثمَّ فلا فلاح ولا فوز إلا بطاعة الله – سبحانه – ورسوله – ﷺ – بدليل قوله جل شأنه : ﴿ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (٢) .

والمقام يوحى بأن تنكير " قوم " يفيد تحقير هؤلاء القوم وانحطاط شأنهم لسوء صنيعهم مع نبيهم عليه السلام .

وفى قوله عليه السلام " شجوا نبيهم " مجاز مرسل علاقته الكلية حيث عبَّر بالكل وأراد الجزء أى شجوا وجه نبيهم ، ولا يخفى ما فى هذا المجاز من حُسن وإيجاز ، وبعد أن قال النبى – ﷺ – هذه العبارة أنزل " الله تعالى قوله ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (٣) ومعناها " أن الله مالك أمرهم . فإنما يهلكهم أو يهزمهم أو يتوب عليهم إن أسلموا أو يعذبهم إن أصروا على الكفر ، وليس لك من أمرهم شئ إنما أنت عبد مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم " (٤) وكأن الله عز وجل يريد من نبيه – ﷺ – أن يكظم غيظه ويصبر على إيذائهم له ويفوض أمرهم إليه عز وجل فهو نعم المولى ونعم النصير .

---

(١) النساء الآية : ٨٠ .

(٢) الأحزاب من الآية : ٧١ .

(٣) آل عمران الآية : ١٢٨ .

(٤) الكشاف ٤١٣/١ .

الحديث الحادى عشر

لا حَولَ ولا قُوَّةَ إلا بالله

عن أبى موسى الأشعرى – رضى الله عنه – قال : كنَّا مع رسول الله – ﷺ – فى غزاةٍ ، فجعَلنا لا نصعَدُ شَرَفاً ولا نعلو شرفاً ولا نهبط فـــى وادٍ إلا رفَعنا أصواتَنا بالتكبير . قال : فَدَنَا منا رسول الله – ﷺ – فقال : يا أيها الناس ، اربَعوا على أنفُسكم ، فإنكم لا تَدْعونَ أصمَّ ولا غائباً ، إنما تدعونَ سميعاً بصيراً . ثم قال : يا عبد الله ابن قَيس ، ألا أُعلِّمكَ كلمةً هـــى مـــن كنوز الجنة : لا حُولَ ولا قوةَ إلا بالله " (١) .

= : = : = : =

هذا الحديث الشريف يتضمن بعض التوجيهات النبوية الشريفة حيـــث يرشد النبى – ﷺ – أصحابه إلى أمر مهم وهو ألا يرفعوا أصواتهم بالتكبير أو الدعاء ، وذلك لأنهم لا يدعون أو لا يكبرون أصـــمَّ ولا غائبـــاً ، وإنمـــا يدعون ويكبرون سميعاً بصيراً هو معهم أينما يكونوا سبحانه جلت قدرتـــه . ثم ينصح ﷺ عبد الله بن قيس – رضى الله عنه – قائلاً له " ألا أعلمك كلمة هى من كنوز الجنة لا حول ولا قوة إلا بالله " ؟ .

ونلاحظ أن هذه العبارة الشريفة صُدرت بـــ " ألا " المركبة من همزة الاستفهام و " لا " النافية ، وقد أفادت " ألا " هنـــا العـــرض والتحضـــيض لدخولها على الجملة الفعلية " أعلمك " وهى تفيد هذا المعنى إذا دخلت علـــى الجملة الفعلية كما ذكر ابن هشام (٢) ، ومن هنا فهذا الاستفهام يفيد العرض والتحضيض ، ومعنى العرض هو استحضار نفس المخاطب وإثـــارة عقلـــه

---

(١) فتح البارى ٥٠٩/١١ .

(٢) مغنى اللبيب لابن هشام – ط / دار إحياء الكتب العربية ٦٦/١ .

وتحريك أشواقه ليتمكن المعنى فى نفسه ويستقر ، وكأن النبى – ﷺ – أراد بذلك السؤال أن يستحضر نفس هذا الصحابى الجليل ، ويثير عقله ، وكذا ليستحضر نفوس المؤمنين ويثير عقولهم ويوجه اهتمامهم إلى إدراك وفهم قيمة وفضل جملة " لا حول ولا قوة إلا بالله " والتى تعنى أنه " لا تحويل للعبد عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة له على طاعة الله إلا بتوفيق الله فهو لا يملك من أمره شيئاً وليس له حلية فى دفع شر ولا قوة فى جلب خيرٍ إلا بإرادة الله تعالى " (١) .

وهذا معنى يستوجب التوكيد والتوثيق ولذا قرره ﷺ بأبلغ طرق القصر وأقواها تأكيداً وهو " النفى والاستثناء " حتى يتمكن فى نفوس المؤمنين الاستسلام والتفويض بمعنى أن يُسلموا ويفرضوا أمرهم كله لله عز وجل موقنين من أنه لا يملكون من أمرهم شيئاً وليس لهم أى قوة ولا حيلة فى دفع الشر عنهم أو جلب الخير لهم إلا بإرادته وحده عز وجل .

وقد جاء فى الحديث : " إذا قال العبد لا حول ولا قوة إلا بالله قال الله أسلم عبدى واستسلم " (٢) .

وكذلك ليلتفت المؤمنون إلى أمرٍ قد يعدونه هيناً وهو عظيم الجدوى كبير الأثر ، ويكفى أن هذه الجملة من " كنوز الجنة " كما ذكر ﷺ أى أن الذى يقولها يحصل على ثواب عظيم يُدخر له فى الجنة بل إن هذه الجملة من غِراس الجنة بدليل " ما أخرجه أحمد والترمذى وصححه ابن حبان عن أبى أيوب أن النبى – ﷺ – ليلة أُسرى به مرَّ على إبراهيم على نبينا وعليه

---

(١) فتح البارى ٥٠٩/١١ بتصرف يسير .

(٢) فتح البارى ٥٠٩/١١ .

الصلاة والسلام – فقال : يا محمد مُرْ أمتك أن يكثروا من غراس الجنـــة ، قال : وما غراس الجنة ؟ قال : لا حول ولا قوة إلا بالله " (١) .

وتنكير " كلمة " فى قوله ﷺ " ألا أعلمـــك كلمـــة " يفيـــد التعظـــيم والتشريف لدلالة المقام على هذا .

ومن خلال هذا الحديث الشريف نرى أن النبى – ﷺ – " كان معلمـــاً لأمته فلا يراهم على حالة من الخير إلا أحب لهم الزيادة فأحب للذين رفعوا أصواتهم بكلمة الإخلاص والتكبير أن يضيفوا إليها التبرى من الحول والقوة فيجمعوا بين التوحيد والإيمان بالقدر " (٢) .

---

(١) السابق ٥٠٩/١١ .

(٢) فتح البارى ٥٠٩/١١ .

الحديث الثانى عشر

مالكَ وضَالَّةَ الإبِلِ ؟

عن زيد بن خالد الجُهَنِىَّ – رضى الله عنه – " أنَّ رجُلاً سألَ رسُــول الله – ﷺ – عن اللُّقَطَةِ قــال : عَرِّفْهَــا سَــنَةً ثــم اعــرِفْ وِكَاءَهَــا (١) وعِفاصَهَا(٢) ، ثم استَنْفِقْ بها ، فإنْ جاءَ ربُّهَا فأدِّها إليهِ . فقال : يا رسول الله فَضَالَّةُ الغَنَمِ ؟ قال خُذْهَا ، فإنَّما هِىَ لَكَ أو لأخيكَ أو للذِّئْبِ ز قال : يــا رسول الله فَضَالَّةُ الإبِلِ ؟ قال فَغَضِبَ رســولُ الله – ﷺ – حَتَّــى احْمَــرَّتْ وَجْنَتَاهُ – أو احْمَرَّ وَجْهُهُ – ثم قال : مَالَك ولَها ؟ معها حِذَاؤُهَا وسِــقَاؤُهَا حَتَّى يَلْقَاهَا ربُّهَا " (٣).

= = = = = =

فى هذا الحديث الشريف يبيِّن النبى – ﷺ – لأمتــه بعــض الأحكــام المهمة المتعلقة باللُّقَطة ليكونوا على علم بها وهى : أنه يقتضى على الملتقط أن يُعرِّف لقطته سنة " أى يذكرها للناس " فى المحافــل كــأبواب المســاجد والأسواق ونحو ذلك ، ولا يذكر شيئاً من الصفات بناءً على القول بوجــوب الدفع لمن عرف الصفة " (٤) .

وقوله عليه السلام " سنة " أى متوالية فلو عرفها سنة متفرقة لم يكــف كــأن يعرفها فى كل سنة شهراً فيصدق أنه عرفهــا ســنة فــى اثنتــى عشــرة سنة " (٥).

---

(١) الوِكاءَ : الخيْطُ الذى تُشَدُّ به الصُّرَّةُ والكِيسُ وغيرُهُما . اللسان مادة : وكى .

(٢) العِفاصُ : هو الوِعاءُ الى يكُونُ فيه النَّفَقَةُ ، إنْ كان من جِلْدٍ أو من خرقةٍ أو غيــر ذلــك . اللسان مادة : عفص .

(٣) فتح البارى ٥/١٠٩ .

(٤) فتح البارى ٥/٩٨ بتصرف يسير .

(٥) السابق نفسه ٥/٩٨ .

فإن جاء صاحبها يخبر بأوصافها قبل انقضاء مدة تعريفها أعطاها إياه فإذا انقضت مدة التعريف تصرف فيها الملتقط كما يشاء .

وبالنسبة للضالَّة من الغنم فيجوز للملتقط أن يأخذها وينتفع بها أو يعطها لأخيه لأنها ضعيفة معرضة للهلاك .

وفى قوله ﷺ " أو للذئب " " حثٌ للملتقط على أخذها لأنه إذا علم أن لم يأخذها بقيت للذئب كان ذلك أدعى له إلى أخذها " (١) .

وحين سُئل – ﷺ – عن ضالَّة " الإبل " غضب حتى احمرت وجنتاه ووجهه الشريف ثم قال : " مالك ولها " ؟ بمعنى أىّ شئ استقر لك وثبت لتأخذ ضالة الإبل وتنتفع بها وتجعلها كغيرها من الحيوانات فى إباحة التصرف فيها والانتفاع بها .

وفى قوله ﷺ : " مالك ولها " ؟ استفهام إنكارى مشوب بالتعجب لدلالة المقام على هذا . فمظاهر غضبه ﷺ وانفعاله التى تمثلت فى إحمرار وجهة الشريف إنما تدل على إنكاره ﷺ لسؤال هذا الرجل عن ضالَّة الإبل وتعجبه من هذا السؤال وكأنه يقول له : ما شأنك بالإبل الضالَّة وكيف لا تعلم أن الضالَّة من الإبل بل يجب التصرف فيها والانتفاع بها ؟

وجاء قوله ﷺ : " معها حذاؤها وسقاؤها حتى يلقاها ربُها " تعليلاً لهذا الإنكار حتى يربطه بالسبب الذى يمنع الملتقط من الانتفاع بالضالَّة من الإبل ، وبهذا يتقرر الحكم فى ذهن السائل ويثبت .. ، ومعنى قوله ﷺ : " معها حذاؤها وسقاؤها" " أى خُفها وسقفاؤها أى جوفها وقيل عنقها ، وأشار بذلك إلى استغنائها عن الحفظ لها بما ركب فى طباعها من الجلادة على العطش وتناول المأكول بغير تعب لطول عنقها فلا تحتاج إلى ملتقط"(٢).

---

(١) فتح البارى ٥/٩٩ .

(٢) فتح البارى ٥/٩٩ ، ١٠٠ .

الحديث الثالث عشر

أفَلا قَعدتَ فى بيتِ أبيكَ وأُمِّكَ ؟

عن الزُّهرىَ قال أخبرنى عُروةُ عن أبى حُمَيد الساعدى أنه أخبَرهُ أن رسولَ الله - ﷺ - استعملَ عاملاً فجاءه العاملُ حينَ فرغَ من عمله فقال : يا رسولَ الله ، هذا لكم ، وهذا أُهْدِىَ لى فقال له : أفلا قَعدْتَ فى بيت أبيكَ وأمكَ فنظرتَ أيُهدَى لكَ أم لا ؟ ثم قام رسول الله - ﷺ - عَشيَّةً بعدَ الصلاةِ فَتشهَّدَ وأثنى على الله بما هوَ أهله ثم قال : أما بعدُ فما بالُ العامل نستَعمِلُه ، فيأتينا فيقولُ : هذا من عَملِكُم وهذا أُهدِى لى ، أفلا قعدَ فى بيت أبيه وأمه فنظر هل يُهدَى له أم لا ؟ فو الذى نفسُ محمد بيده ، لا يَغُلُّ أحدُكم منها شيئا إلا جاء به يومَ القيامة يحملهُ على عُنقِه : إن كان بعيراً جاء به له رُغاء (١) ، وإن كانت بقرةً جاء بها لها خُوار (٢) ، وإن كانت شاة جاء بها تَيْعر (٣) . فقد بلَّغتُ فقال أبو حميد : ثم رفعَ رسولُ الله - ﷺ - يدَه حتى إنا لننظرُ إلى عُفْرةِ (٤) إبْطَيه . قال أبو حميد : وقد سمعَ ذلك مَعِى زيدُ بن ثابت من النبى - ﷺ - فسَلُوه " (٥) .

= : = : = : =

يتضمن هذا الحديث الشريف بعض الأصول والقواعد التى وضعها الإسلام فى الحكم ، وإدارة شئون الناس ورعاية مصالحهم وتحقيق العدل والحق فيما بينهم ، وكذلك يحث أولى الأمر على الأمانة فى عملهم والبعد

---

(١) الرُّغاءُ : صوتُ الإبلِ . اللسان مادة " رغا " .

(٢) الخُوَارُ : صَوْتُ البقرِ . اللسان مادة " خور " .

(٣) شاةُ تَيْعَرُ : تَصيحُ . اللسان مادة " يعر " .

(٤) العُفْرَةُ : البياضُ ولكن ليسَ بالبياضِ الناصعِ الشديدِ . اللسان مادة " عفر " .

(٥) فتح البارى ٥٣٢/١١ .

عن الشبهات والترفع عن المغريات مهما كانت لأن فى هذا تجليـــةً لمـــنهج الإسلام فى الحكم .

وقد حرص بشدة ﷺ على تطبيق ذلك المنهج القويم فى الحكم من خلال هذا الحديث الشريف ، وذلك يتجلى فى قصة " ابن اللتبْية " الذى استعمله ﷺ عاملاً فى ولاية أمر من أمور الناس ، وقد أُهدى له هدية فلما فرغ من عمله جاء إلى النبى – ﷺ – وقال له : يا رسول الله : " هذا لكم وهذا أهدى لى " فغضب منه ﷺ غضباً شديداً وأعلن رفضه القاطع لما فعله هذا العامل .

وحِدَّةُ هذا الغضب والرفض تظهر فى عبارة الاستفهام " أفلا قعدتَ فى بيت أبيك وأمك فنظرت أيهدى لك أم لا " ؟ وهو استفهام إنكـــارى تـــوبيخى قصد به عليه السلام تنبيه " ابن اللُّتبْيةَ " وتوبيخه وتعنيفه حتى يرجـــع إلـــى نفســـه فيخجل مما فعله ، وهو قبوله الهدية فى موقع المسئولية لأن هدية العامل أى المسؤول فى زماننا إنما هى لبيت مال المسلمين أى للعمل ، ولا يجب علىـــه أخذها لأنها رِشْوةٌ و " الفاء " فى قوله عليه السلام " أفلا قعدت " تشير إلى أن كلاماً جرى فى نفس المتكلم فكفَّه وطواه وأومأ إليه بهذه " الفاء " ، وهذا من فصيح الكلام ونادره ، وتقدير هذا المحذوف مما لا يهتدى إليه أحد كما ذكر شيخنا الأستاذ الدكتور / محمد أبو موسى لأنه جرى فى خاطر صاحب الكـــلام ﷺ ولم يُفصح عن شئ منه ، وإنما أبقاه هكذا ليراود نفس القارئ ويستثير حسه ثم لا يقع منه على شئ وكأنه تساؤل موقوف غير مجاب وهـــو أوقـــع فـــى النفس من الجواب " (١) و " لا " فى القول السابق " زائدة لتأكيـــد مضـــمون الكلام والمعنى " أقعدت " ومضمونه الإثبات " (٢) .

---

(١) شرح أحاديث من صحيح البخارى – د / محمد أبو موسى ص ٢٦٧ بتصرف .
(٢) السابق ص ٢٦٨ .

وبالإضافة إلى هذا ففى عبارة الاستفهام السابقة " لَذْعُ وتهكمٌ فقد قال ﷺ " قعدت " ولم يقل " أفلا مكثت أو بقيت " لأن القعود عجْزُ ثم قال ﷺ " فى بيت أبيك " ولم يقل " فى بيتك " وكأنه عاجز لا بيت له وأنه يرعاه أبوه وأمه وكما يرعى الآباء والأمهات الضَّعفةُ والعجَزةُ والنساء " (١) .

وفى قوله ﷺ " فنظرت أيهدى لك أم لا " دلالة على أن صلة هذا العامل بمن قَبِلَ الهدية منهم إنما كانت بسبب أنه مسؤول ولولا تلك المسئوولية ما عرفه أحد ولا أهدى إليه أحد ولو أنه بقَى فى البيت ما جاءه شئ من الهدايا ، ولذا كان من الواجب عليه أن يحترم هذه المسئوولية التى كُلف بها ، وأن يكون طاهراً نزيهاً فى عمله وينأى عن مواطن الريبة والشبهة .

وكأن النبى - ﷺ - يريد بذلك أن يُعيد هذا العامل المخطئ إلى تدبر حاله إذا اعتزل الولاية فجلس فى بيت أبيه وأمه أكان يُهدى إليه أم لا ؟ فإذا أجاب نفسه بالنفى - وهو لاشك مجيبها بالنفى استيقن أن ما احتبسه باسم الهدية هو مال المسلمين وحصوله فى يده بسبب ولايتهم وسلطانه بينهم فيستيقظ ضميره من خديعة استجراه الشيطان بها إلى حتفه " (٢) .

ثم نلاحظ أن الإنكار التوبيخى هنا لا يتعلق فقط بشخص معين وهو هذا العامل الذى تقبَّل الهدية ، وإنما يعلو درجة فوق ذلك حيث جعله النبى - ﷺ - يتعلق بمبدأ عام يشمل جميع ولاة أمور المسلمين بدليل أنه جمع صحابته ﷺ وخطبهم بلغة جادة حاسمة مؤكدة ليعم الحكم المقرر كل ولاة هذه الأمة ، وهذا إنما يدل على غاية حرصه ﷺ على ضرورة أن يبتعد كُلُّ مَنْ يتولى عملاً للأمة عن كل شبهة ويترفع عن كل مُغرية حتى يحفظ لرعيته حقوقها ويصون مقدَّرَاتها .

---

(١) شرح أحاديث من صحيح البخارى ص ٢٦٦ .

(٢) الحديث النبوى من الوجهة البلاغية - د / عز الدين السيد ص ٣٥٨ .

الحديث الرابع عشر

فى حِجَّةِ الوَداعِ

عن محمد بن سيرين عن ابن أبى بكرةَ عن أبى بكرةَ عن النبى – ﷺ – قال : " الزمانُ قد استدارَ كهيئةِ يومَ خلقَ السماواتِ والأرض : السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حُرُم : ثلاثة متواليات – ذو القعدة وذو الحجة والمحرَّم – ورجبُ مُضَرَ الذى بين جُمادَى وشعبان . أىُّ شهر هذا ؟ قلنا : الله ورسولُه أعلم . فسكتَ حتى ظنَنّا أنه سيسمِّيه بغير اسمه ، قال " أليس ذو الحجَّة ؟ قلنا : بلى . قال : فأىُّ بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكتَ حتى ظنَنَّا أنه سيسميِّه بغير اسمه ، قال : أليس البلدة ؟ قلنا : بلى . قال : فأىُّ يوم هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظنَنَّا أنه سيسمِّيه بغير اسمه . قال أليس يومَ النَّحر ؟ قلنا : بلى . قال : فإن دماءكم وأموالكم – قال محمد : وأحسبُهُ قال : وأعراضكم – عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، فى بلدكم هذا ، فى شهركم هذا . وستَلقَون ربكم فسيسألكم عن أعمالِكم ، ألا فلا ترجعوا بعدى ضلاّلاً يضرِبُ بعضكم رِقابَ بعض . ألا ليبلغ الشاهدُ الغائبَ ، فلعل بعضَ مَنْ يُبلغهُ أن يكون أوعى له من بعض من سمعَه – فكان محمدُ إذا ذكرَهُ يقول : صدقَ محمدُ ﷺ – ثم قال :" ألا هل بلغتُ " (١).

= = = = = =

ورد هذا الحديث الشريف فى خطبته ﷺ فى حجة الوداع ، وقد أخبر عليه السلام صحابته – من خلال هذا الحديث – بما لم يعلموه وهو أن الزمان قد استدار ورجع كهيئته الأولى يوم أن خلق الله تعالى السماوات والأرض ،

---

(١) فتح البارى ٧/٧١١ .

ورجعت الأشهر إلى ما كانت عليه وعددها اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم أى يحرم فيها القتال حيث " كان العرب يعظمون تلك الأشـــهر ويحرمـــون القتال فيها حتى لو لقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه لم يهجه " (١) .

والأشهر الحرم هى ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجـــة والمحـــرم وواحد فرد وهو شهر رجب الذى يقع بين شهرى جمادى وشعبان ، وهـــذا بيان لقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَـــابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ... الآية ﴾ (٢) .

ثم أخذ عليه السلام يُذكِّر صحابته بحرمة بعض الأشياء كيوم النحر وشهر ذى الحجة ومكة المكرمة ، ويلاحظ أن النبى - ﷺ - عندما تحدث عن حرمـــة هذه الأشياء قدَّم السؤال عنها تذكاراً لحرمتها وتقريراً لما ثبت فى نفوســـهم ليبنى عليه ما أراد تقريره على سبيل التأكيد " (٣) .

كما أن فى " سؤاله - ﷺ - عن الثلاثة وسكوته بعد كل سؤال منهـــا كان لاستحضار فُهُو مِهم ، وليقبلوا عليه بكليتهم ، وليستشعروا عظمـــة مـــا يخبرهم عنه " (٤) حتى يتقرر فى نفوسهم ويتمكن ما أراده ﷺ وهو التأكيـــد على تحريم القتال وتغليظه فى يوم النحر ، وشهر ذى الحجـــة وفـــى مكـــة المكرمة نظراً لفضل وسمو مكانة تلك الأشياء عند الله عز وجل .

وفى قوله عليه السلام " أليس ذو الحجة " ؟ ، " أليس البلدة " ؟ ، " أليس يـــوم النحر " ؟ استفهام يفيد التقرير بما دخله النفى حيث دخلت همزة الاستفهام فى

---

(١) الكشاف ٢٦٩/٢ .

(٢) التوبة من الآية : ٣٦ .

(٣) فتح البارى ٦٧٣/٣ .

(٤) فتح البارى ١٩١/١ .

هذه الجمل على كلمة النفى " ليس " فأفاد الكلام إثبات التحريم والتعظيم لهذه الأشياء ، وتقرير المخاطبين بما يعرفونه من مضمون الكلام وهو تعظيم ذلك الشهر والبلد واليوم بتحريم القتال فيها وسفك الدماء .

وقوله ﷺ " فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ... إلـخ " يفيد " المبالغة فى بيان تحريم هذه الأشياء " (١) .

كما أن فى هذا القول الشريف إيجازاً بالحذف وهو حـذف المضـاف وتقديره فإن سَفْك دمائكم وأخذِ أموالكم وثَلْب أعراضكم .

ومناط التشبيه فى قوله ﷺ كحرمة يومكم ، وما بعـده ظهـوره عنـد السامعين لأن تحريم البلد والشهر واليوم كان ثابتاً فى نفوسهم مقرراً عندهم بخلاف الأنفس والأموال والأعراض فكانوا فى الجاهلية يستبيحونها فطـراً الشرع عليهم بأن تحريم دم المسلم وماله وعرضه أعظم من تحـريم البلـد والشهر واليوم " (٢) .

" وفى إضافة اليوم والشهر والبلد إلى المخـاطبين فـى قولـه ﷺ " كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا " إشعار باختصاصهم بها ، يزيدها لديهم جلالاً ، ويزيدهم لها إجلالاً ثم تمييز كل منها أكمل التمييز باسم الإشارة " هذا " الجامع بين حرف التنبيه ومعنى القرب وفى ذلـك الصـنيع تقرير يدفع المساهلة ولا يقبل التأويل أو الشك " (٣) .

---

(١) فتح البارى ١/١٩١ .

(٢) السابق نفسه ١/١٩١ .

(٣) الحديث النبوى من الوجهة البلاغية ص ٣٥٠ بتصرف .

وما سبقت الإشارة إليه فى هذا الحديث الشريف وتكـــراره ﷺ لقولـــه " فإن دماءكم ... إلخ " مراراً كما ورد فى بعض روايات هذا الحديث " (١) ، ثم قوله ﷺ " ألا هل بلَّغتُ " ؟ ، " اللَّهمَّ اشْهَدْ " .

إنما يدل دلالة قاطعة على غاية حرصه ﷺ على زيادة التأكيـــد علـــى تغليظ حرمة هذه الأشياء بأبلغ ما يمكن من تأكيد .

---

(١) فتح البارى ٣/٦٧٠ .

الحديث الخامس عشر

كيفَ يُحشَرُ الكافِرُ على وَجهِهِ ؟

عن أنس بن مالك – رضى الله عنه – أن رجُلاً قال : يا نبـــىَّ الله ، كيف يُحشرُ الكافِرُ على وَجهِهِ ؟ قال " أليسَ الذى أمْشَاهُ على الرجلين فـــى الدنيا قادراً على أن يُمشيهِ على وَجهِهِ يومَ القيامةِ " ؟ (١).

= = = = = = =

" الحشر يعبر به عن النشر لاتصاله به ، وهو إخراج الخلق من القبور حفاة عراة فيساقون ويجمعون إلى الموقف للحساب فحينئذ يحشـــرون علـــى ثلاثة أفواج كما أخبر بذلك النبى – ﷺ – فى حديث أبـــى ذر – رضـــى الله عنه – أنه قال : " حدثنى الصادق المصدوق – ﷺ – أن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أفواج : فوج طاعمين كاسين راكبين ، وفـــوج يمشـــون ، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم " (٢) ، والفـــوج الأخيـــر هـــو فـــوج الكافرين الذين تسحبهم الملائكة على وجوههم يوم القيامة إلى النار ، وهـــذا الفوج هو الذى ورد فى شأنه الحديث الذى معنا الذى يرويه أنس بن مالك – رضى الله عنه – فيقول : إن رجلاً قال : يا نبى الله كيف يُحشر الكافر على وجهه ؟ وكأن هذا الرجل يستبعد وقوع هذا الحشر للكافر على هذه الصورة المهينة الحقيرة حتى أنه سأل النبى – عليه السلام – عن كيفية سحب الملائكة للكافر يوم القيامة على وجهه . فقال له ﷺ : " أليس الذى أمشاه على الرجلين فـــى الدنيا قادراً على أن يُمشيه على وجهه يوم القيامة " ؟ وهـــو جـــواب بلفـــظ الاستفهام الذى يفيد التقرير بما دخله النفى – كما تقدم فى نظائره من قبل –

---

(١) فتح البارى ١١/٣٨٥ .

(٢) فتح البارى ١١/٣٨٧ .

فالنبى – ﷺ – يريد بهذا الاستفهام إثبات قدرة الله – عز وجل – على أن يُمشى الكافر يوم القيامة على وجهه ، وتقرير ذلك الأمر وتمكينه فى نفس هذا السائل حتى لا يعتقد أن ذلك مستبعداً ومستغرباً . " والمراد بالمشى هنا حقيقته فلذلك استغربوه حتى سألوا النبى – ﷺ – عن كيفيته " (١) .

ومما يؤيد هذا الاستفهام ويقرره قوله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (٢) ، وكذا قوله جل شأنه : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ (٣) فالحديث فى هاتين الآيتين الكريمتين يتعلق بالكافرين وحشرهم يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم وبئس المصير .

" والحكمة فى حشر الكافر على وجهه يوم القيامة أنه عوقب على عدم السجود لله فى الدنيا بأن يسحب على وجهه فى القيامة إظهاراً لهوانه بحيث صار وجهه مكان يده ورجله فى التوقى عن المؤذيات " (٤) .

---

(١) فتح البارى ١١/٣٩٠ .

(٢) الفرقان الآية : ٣٤ .

(٣) الإسراء من الآية ٩٧ .

(٤) فتح البارى ١١/٣٩٠ .

الحديث السادس عشر

ألا أُخبِرُكم بأهل الجنَّةِ وبأهلِ النارِ ؟

عن مَعبَدِ بن خالدٍ قال سمِعتُ حارثةَ بن وَهــبٍ الخُزاعــيَّ قــال : " سمعتُ النبيَّ – ﷺ – يقول : ألا أُخبِرُكم بأهل الجنَّةِ ؟ كُلُّ ضعيف مُتضــعَّف لو أقسَمَ على الله لأبَرَّه . ألا أُخبِرُكم بأهلِ النارِ ؟ كُلُّ عُتُــلٍ (١) جَــوَّاظٍ (٢) مُستكبر " (٣).

= = = = = = =

فى هذا الحديث الشريف يخبر النبى – ﷺ – أصحابه عن أهل الجنــة وأهل النار وصفات كل منهما ، وقد بدأ عليه السلام كلامه الشــريف عــن الجنــة وأهلها بقوله " ألا أخبركم بأهل الجنة " ؟ ، وعن النار وأهلهــا بقولــه " ألا أخبركم بأهل النار " ؟ ونلاحظ أن النبى – ﷺ – قد استفتح هذين القولين بـ " ألا " المركبة من همزة الاستفهام و " لا " النافية ، وقد أفادت " ألا – هنا – العرض والتحضيض لدخولها على الجملة الفعلية (٤) " أخبركم " ، ومن ثــمَّ فقد أفاد هذا الاستفهام العرض والتحضيض أى استحضار نفوس المخــاطبين وإثارة عقولهم وتشويقهم ليتمكن فى نفوسهم ويتقــرر حقيقــة أهــل الجنــة وصفاتهم ، وكذا حقيقة أهل النار وصفاتهم ، وقد حدد النبى – عليه السلام – صفات

---

(١) العُتُلُّ : هو الشَّــدِيدُ الخُصُومَــةِ والفَــظُّ الغَلِيــظُ من النــاس . اللســان مــادة : عتل .

(٢) الجَوَّاظُ : هو الكَثِيرُ اللحْم الجَافى الغَلِيظُ الضَّخْمُ المُخْتالُ فى مِشْــيَتِه ، وقيــلَ : هــو الفاجِرُ ، وقيل : هو الصيَّاحُ الشِّرِّيرُ . اللسان مادة : جوظ .

(٣) فتح البارى ٨/٥٣٠ .

(٤) حيث ذكر ابن هشام أن " ألا " تفيد العرض والتحضيض إذا دخلــت علــى الجملــة الفعلية. مغنى اللبيب ١/٦٦ .

أهل الجنة بقوله : " كُلُّ ضعيف مُتضعَّف لو أقسَمَ على الله لأبَرَّه " وصفات أهل النار بقوله : " كُلُّ عُتُلٍ جوَّاظٍ مُستكبر " .

هذا وقد ذكر شيخنا الأستاذ الدكتور / محمد أبو موسى " أن ألا التى للعرض لا تخلو من معنى التنبيه وأن لذلك دلالة على أهمية المعنى وعلى الحفاوة به " (١) وكأن النبى - ﷺ - قد أراد - أيضاً - من الاستفتاح بـ " ألا " تنبيه هؤلاء المخاطبين إلى أمر مهم يجب عليهم أن يعرفوه وهو حقيقة أهل الجنة وصفاتهم ، وحقيقة أهل النار وصفاتهم ليتمسكوا فى الدنيا بصفات أهل الجنة ، ويتجنبوا صفات أهل النار حتى يفوزوا فى الآخرة بالجنة ويسعدوا بنعيمها ، وينجوا من النار وعذابها ، وذلك إن دلَّ على شئ فإنما يدل على شدة حرصه ﷺ على أمته وإرشادها إلى ما ينفعها وتحذيرها مما يضرها .

---

(١) شرح أحاديث من صحيح البخارى - د / محمد أبو موسى ص ٤٥١ .

الحديث السابع عشر

وأنذِرْ عَشِيرتكَ الأقربِين

عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : " لما نَزَلَت " وأنذِرْ عشِيرتكَ الأقربين " صَعِدَ النبىُّ – ﷺ – على الصَّفا فجعل يُنادى : يا بنى فِهر ، يا بنى عَدىَ – لبُطونِ قُريش – حتى اجتمعوا ، فجعلَ الرجلُ إذا لم يستطعْ أن يخرجَ أرسل رسولاً لينظرَ ما هو ، فجاء أبو لهب وقريشُ ، فقال: أرأيتكم لو أخبرتُكم أنَّ خيلاً بالوادى تَرِيدُ أن تُغيَر عليكم أكنتم مُصدِّقىَّ؟ قالوا : نعم ، ما جرَّبْنا عليك إلا صِدْقاً . قال : فإننى نذير لكم بينَ يدَى عذابٍ شديد . فقال أبو لهب : تَباً لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ " (١).

= = = = = =

اشتهر النبى – ﷺ – بصفة الصدق منذ طفولته بدليل شهادة قومه وعشيرته على ذلك حينما دعاهم للاجتماع معه بجوار جبل يسمى " بجبل الصفا " فلما اجتمعوا قال لهم ﷺ – كما ورد فى هذا الحديث الشريف – " أرأيتكم لو أخبرتُكم أنَّ خيلاً بالوادى " – أى ما يلى الجبل – تريد أن تُغير عليكم أكنتم مُصدِّقىَّ ؟ فقالوا : نعم ما جبرنا عليك إلا صدقاً .

ونلحظ أن قوله – عليه السلام – " أكنتم مُصدِّقىَّ " ؟ يشتمل على استفهام تقريرى أراد به النبى – ﷺ – حمل قومه وعشيرته على الإقرار بما يعلمونه عن صدقه إذا أخبرهم عن أمر غائب أو عن شئ لا يعرفونه .

فما كان من قومه وعشيرته إلا أن أقروا واعترفوا بصدقه ﷺ وهذا ما نراه واضحاً فى جوابهم حيث قالوا : " نعم ما جبرنا عليك إلا صدقاً " وهى

---

(١) فتح البارى ٨/٣٦٠ .

شهادة مؤكدة ومقررة لصدقه الدائم لاشتماله على أقوى طرق القصر تأكيـــداً وتقريراً وهو " النفى والاستثناء " .

وهكذا أقرَّ قومه وعشيرته بما فيهم أبو لهب على صدقه الـــدائم ﷺ ، ولم يكن إقرارهم بهذه الشهادة المؤكدة إلا بسبب يقينهم التام من صـــدقه ﷺ إذا لم يجربوا عليه كذباً قط حتى أنه ﷺ لُقِبَ بالصادق المصدوق وما أعظمه من لقب .

الحديث الثامن عشر

فضل " قل هو الله أحد "

عن أبى سعيد الخُدرىَّ – رضى الله عنه – قال : " قال النبىُّ – ﷺ – لأصحابهِ : أيعجزُ أحدُكم أن يقرأ ثلثَ القرآن فى ليلة ؟ فشقَّ ذلك عليهم وقالوا : أيُّنا يطيقُ ذلك يا رسول الله ؟ فقال : الله الواحِدُ الصَّمَدُ ثلث القرآنِ" (١).

= = = = = =

فى هذا الحديث الشريف يوجه النبى – ﷺ – أصحابه إلى فضل قراءة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، ويرغبهم فيها لعظيم فضلها وجزيل ثوابها .

وقد بدأ ﷺ كلامه فى هذا الشأن بمخاطبة أصحابه فقال : " أيعجِزُ أحدُكم أن يقرأ ثلثَ القرآن فى ليلة " وفى هذه العبارة الشريفة استفهام تقريرى لتحقيق الحكم وتثبيته فى نفوس أصحابه وتمكينه .

ونلحظ أن النبى – عليه السلام – يريد بهذا الاستفهام أن يستدرج أصحابه لينبه عقولهم ويثير اهتمامهم ليتقرر الحكم فى نفوسهم ويثبت .

فلما فهموا معنى سؤاله ﷺ استشعروا المشقة فى قراءة ذلك القدر الكبير من القرآن العظيم فى ليلة واحدة وقالوا : " أينا يطيق ذلك يا رسوله الله " ؟ فقال ﷺ : " الله الواحد الصمد ثلث القرآن " فلما سمعوا هذا الجواب الشريف شعروا بالارتياح والطمأنينة بعد شعورهم من قبل بالمشقة ، وعدم المقدرة على قراءة ثلث القرآن المجيد فى ليلة واحدة . بل إن النبى – عليه السلام – قد أكد هذا الجواب وقرره بالقسم ، وإنَّ واللام حيث يقول عن تلك السورة فى رواية أخرى لهذا الحديث " والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن " (٢)

---

(١) فتح البارى ٦٧٦/٨ .

(٢) السابق ٦٧٨/٨ .

وذلك ليتمكن من نفوس أصحابه ويستقر فضل قراءة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، ومن ثمَّ يلتزمون بقراءتها وترديدها .

ومعنى قوله ﷺ " إنها لتعدل ثلث القرآن " أى أنها " ثلث باعتبار معانى القرآن ، لأنه أحكام وأخبار وتوحيد وقد اشتملت هى على القسم الثالث فكانت ثلثا بهذا الاعتبار ويستأنس لهذا بما أخرجه أبو عبيدة من حديث أبى الدرداء قال : " جزَّء النبى – ﷺ – القرآن ثلاثة أجزاء : فجعل قل هو الله أحد " جزءاً من أجزاء القرآن " (١) .

وهكذا اتخذ ﷺ من هذا الاستفهام التقريرى وسيلة قوية لترغيب أصحابه وأمته فى تلاوة القرآن المجيد وإثبات فضل قراءة سورة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ لكونها تضاهى ثلث القرآن العظيم فمن قرأها مرة كان كمن قرأ ثلث القرآن الكريم وبهذا يكون مَنْ قرأها ثلاثاً كمن قرأ ختمة كاملة وهذا إنما يدل على غاية فضلها وعظيم شرفها .

---

(١) فتح البارى ٦٧٨/٨ .

الحديث التاسع عشر

أَوَ تُحبِّينَ ذلكَ ؟

عن الزُّهرىِّ قال أخبرنى عروةُ بن الزُّبير أن زينب ابنةَ أبى سلمةَ أخبَرته " أن أُمَّ حَبيبةَ بنت أبى سفيان أخبَرتها أنها قالت : يا رسولَ الله انكِحْ أختى بنت أبى سفيان ، فقال : أَوَ تُحبِّينَ ذلكَ ؟ فقلت : نعم ، لستُ لك بمُخْلية ، وأحَبُّ مَنْ شاركنى فى خيرٍ أختى . فقال النبىُّ - ﷺ - : " إنَّ ذلك لا يَحلُّ لى . قلت فإنا نُحدَّثُ أنكَ تريدُ أن تنكحَ بنت أبى سَلمة . قال : بنت أمِّ سلمة ؟ قلت : نعم فقال : لو أنها لم تكُنْ ربيبتى فى حجرى ما حلَّت لى . إنها لابنةُ أخى من الرضاعة . أرضعَتْنِى وأبا سلمةَ ثُوَيْبَةُ ، فلا تعرضْنَ علىَّ بناتِكن ولا أخواتِكن " (١).

= = = = = =

من طبع النساء الغيْرة على أزواجهن ، ولذا فقد تعجب النبى - ﷺ - من زوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان حينما طلبت منه الزواج بأختها - كما ورد فى هذا الحديث الشريف - فقال لها ﷺ : " أَوَ تُحبِّينَ ذلكَ ؟ " وهو استفهام تعجب من كونها تطلب أن يتزوج غيرها مع ما طبع عليه النساء من الغيرة " (٢) أى أنه قد تعجب من طلبها لكونه أمراً غريباً غير مألوف ولا محبب عند النساء . لما يعلمه - ﷺ - من الغير التى جرت بها العادة بين النساء والزوجات حيث لا يُردن البتة أن يشاركهن أحد من النساء فى أزواجهن ، فلما أصرَّتْ أم حبيبة - رضى الله عنها - على طلبها بدليل قولها : " نعم لستَ لك بمُخْلية وأحَبُّ مَنْ شاركنى فى خيرٍ أختى " ومعنى

---

(١) فتح البارى ٤٣/٩ .

(٢) السابق ٤٦/٩ .

قولها " لست لك بمُخْلية " أى لست بمنفردة بك ولا خالية من ضـــرة " (١) " والتنكير فى " خير " يعنى " أى خير كان ، والمراد بهذا الخير هو صـــحبة رسول الله – ﷺ – المتضمنة لسعادة الدارين الساترة لما لعله يعـــرض مـــن الغيرة التى جرت بها العادة بين الزوجات " (٢) .

ثم أخبرها النبى – عليه السلام – بأن هذا الزواج لا يحل له فقال : " إن ذلك لا يحل لى " .

ثم قالت أم حبيبة للنبى – ﷺ – بلغنى أنك تريد أن تنكح بنـــت أبـــى سلمة . فقال لها عليه السلام : " بنت أم سلمة " ؟ وفى هذه العبارة الشريفة إيجـــاز بالحذف حيث حُذفت همزة الاستفهام ، والتقدير : " أبنت أم سلمة " ؟ ، وقـــد ذكر ابن هشام أن همزة الاستفهام قد اختصت بأحكام أحدها جواز حذفها (٣)، والاستفهام هنا يفيد الإنكار الذى يتضمن معنى التعجب . فـــالنبى – عليه السلام – ينكر على أم حبيبة ما أخبرته به وهو أنه يريد أن ينكح بنت أم سلمة ، وينفى ذلك تماماً بل ويتعجب ﷺ مما ذكرته ، وكأنه يقول لها : كيف أتزوج بنت أم سلمة وهى لا تحل لى ؟! ، وعلَّل هذا الحكم بقوله " لو أنها لم تكن ربيبتـــى فى حجرى ما حلَّت لى . إنها لابنةُ أخى من الرضاعة . أرضعتنى وأبا سلمة ثُويبةُ " . والمعنى : " أنها لو كان بها مانع واحد لكفى فى التحريم فكيف وبها مانعان " (٤) أى أنها لو كانت بنت أبى سلمة من غير أم سلمة لحرمت عليه من جهة الرضاعة حيث أرضعته ﷺ وأبا سلمة امرأة تسمى ثويبـــة ، ولـــو

---

(١) فتح البارى ٩/٤٦ .

(٢) نفسه ٩/٤٦ بتصرف .

(٣) مغنى اللبيب ١/١١ وما بعدها .

(٤) فتح البارى ٩/٤٧ .

كانت بنت أبى سلمة من أم سلمة ما حلَّتْ له ﷺ لكونها بنت أخيه من الرضاعة ، " وربيبته " أى بنت زوجته أم سلمة ، وبذلك فقد بيَّن النبى – ﷺ – لأم حبيبة الحكم وعلته ليتمكن فى نفسها ويثبت ، ولعل السبب فيما طلبته أم حبيبة – رضى الله عنها – مع كونه مُحرماً يرجع إلى أنها " لم تطلع على تحريم ذلك إما لأن ذلك كان قبل نزول آية التحريم وإما بعد ذلك وظنت أنه من خصائص النبى – ﷺ – والاحتمال الثانى هو المعتمد والأول يدفعه سياق الحديث ، وكأن أم حبيبة استدلت على جواز الجمع بين الأختين بجواز الجمع بين المرأة وابنتها بطريق الأولى لأن الربيبة حُرِّمت على التأبيد والأخت حُرمت فى صورة الجمع فقط فأجابها ﷺ بأن ذلك لا يحل وأن الذى بلغها من ذلك ليس بحق ، وأنها تحرم عليه من جهتين " (١) .

إحداهما الربيبة والأخرى الرضاعة وهما من المحرمات التى لا تحل مطلقاً للرجل ، وذلك عملاً بقوله عز وجل : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ " (٢) .

---

(١) فتح البارى ٤٧/٩ .

(٢) سورة النساء الآية : ٢٣ .

الحديث العشرون

يا مُعاذُ أفتَّان أنتَ ؟

عن جابر بن عبد الله " أن مُعاذَ بن جبل – رضى الله عنه – كان يُصلِّى مع النبى – ﷺ – ثم يأتى قومَهُ فيُصلى بهمُ الصلاةَ ، فقرأ بهم البقرة ، قال فتجوَّز رجلُ فصلى صلاة خفيفة ، فبلغَ ذلك مُعاذاً فقال : إنه منافق ، فبلغ ذلك الرجلَ فأتى النبى – ﷺ – فقال يا رسولَ الله إنا قوم نعملُ بأيدينا ، ونَسقى بنواضِحنا ، وإنَّ مُعاذاً صلى بنا البارحة فقرأ البقرةَ فتجوَّزت ، فزعم أنى منافق . فقال النبىُّ – ﷺ – : يا مُعاذُ أفتَّانُ أنتَ ؟ ثلاثاً . اقرأ والشمس وضُحاها ، وسبِّح اسمَ ربكَ الأعلى ونحوهما " (١).

= = = = = =

لقد أوصى النبى – ﷺ – مراراً – بالتخفيف على الناس فى صلاة الجماعة لأن فيهم الضعيف والمريض والكبير وذا الحاجة ، وذلك من خلال عدة أحاديث شريفة منها قوله ﷺ : " يا أيها الناس إن منكم منفِّرين فمن أمَّ الناس فليتجوزْ فإن خلفه الضعيف والكبير وذا الحاجة " (٢) .

وقوله ﷺ : إذا صلى أحدكم للناس فليخفف إن منهم الضعيف والسقيم والكبير . وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء " (٣) .

وكذلك هذا الحديث الذى نحن بصدده يوصى فيه النبى – ﷺ – معاذ بن جبل – رضى الله عنه – بأن يخفف بالناس ولا يطيل عليهم فى الصلاة ، ويعلن رفضه الشديد لما صنعه فى صلاته بالناس وهذا ما نراه فى قوله

---

(١) فتح البارى ٥٣٢/١٠ .

(٢) فتح البارى ٢٣٤/٢ .

(٣) السابق نفسه ٢٣٣/٢ .

ﷺ : " يا معاذُ أفتَّان أنت " ؟ وهى جملة إنشائية اشتملت على نداءٍ من النبى – ﷺ – لمعاذ – رضى الله عنه – وهو نداء بإحدى أدوات النداء للبعيد وهى الياء ، وذلك لتنبيه معاذ إلى مراعاة التخفيف فى صلاته بالناس حتى لا يشق عليهم .

وفى قوله ﷺ : " أفتَّان أنت" ؟ استفهام إنكارى يتضمن معنى التنبيه فالنبى – ﷺ – ينكر على معاذ – رضى الله عنه – التطويل فى صلاته بالناس ، وينبهه إلى أن هذا خطأ منه ، وخروج عما تقتضيه صلاة الجماعة من التخفيف بالمأمومين مراعاة لحالهم وأعذارهم – كما ورد فى الحديث – فشقَّ ذلك عليهم فلما علم ﷺ بما فعل معاذ فى صلاته بالناس غضب منه ﷺ بشدة وأنكر عليه ما فعل وأمره بالتخفيف إذا صلى بالناس وذلك بقراءة سورة " الشمس " وسورة " الأعلى " ونحوهما .

بل وكرر ﷺ قوله لمعاذ " أفتَّان أنت" ثلاث مرات لتأكيد إنكاره ورفضه القاطع لما صنعه فى صلاته بالناس .

وأُوثر التعبير بصيغة المبالغة " فتَّان " للإشارة إلى مبالغة معاذ – رضى الله عنه – فى فتنة الناس وتعذيبهم بالتطويل عليهم فى الصلاة .

وتطويل الإمام فى الصلاة يكون سبباً فى كراهية المأمومين وبغضهم للصلاة فى الجماعة بل وخروجهم منها وانصرافهم عنها بدليل ما ورد فى حديث أبى مسعود – رضى الله عنه – " أن رجلاً قال : والله يا رسول الله إنى لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا . فما رأيت رسول الله – ﷺ – فى موعظة أشد غضباً منه يومئذ ثم قال : إن منكم مُنفِّرين ، فأيكم مَا صلى بالناس فليتجوَّزْ فإنَّ فيهم الضعيفَ والكبيرَ وذا الحاجة " (١) .

---

(١) فتح البارى ٢/٢٣١ .

وكذا ما رواه البيهقى فى الشعب بإسناد صحيح عن عمر – رضى الله عنه – قال لا تبغضوا إلى الله عباده يكون أحدكم إماماً فيطول علـــى القـــوم الصلاة حتى يبغض إليهم ما هم فيه " (١) .

ولذلك فقد أمر النبى – ﷺ – أصحابه بالتخفيف على مَنْ يُصلون خلفهم تيسيراً عليهم ، وترفقاً بهم لأن فيهم الضعيف والمريض والكبير وذا الحاجة كما أن مراعاة التخفيف تؤدى إلى محافظة الناس ومداومتهم علـــى صـــلاة الجماعة ، وعدم تخلفهم عنها ، وهذا ما حرص النبى الرءوفُ الرحِيمُ علـــى غرْسه وتمكينه فى نفوس أصحابه من خلال هذا الحديث الشريف ، وغيـــره من الأحاديث الأخرى .

---

(١) فتح البارى ٢/٢٢٩ .

الحديث الحادى والعشرون

وهل من نَبىٍّ إلاَ رَعاها ؟

عن أبى سلَمة قال أخبرنى جابرُ بن عبد الله قال " كُنَّا مع رسول الله - ﷺ - بمَرِّ الظَّهْرَانِ نجْنى الكباثَ (١) فقال : عليكم بالأسود منه فإنه أيطْبُ (٢). أكنتَ ترعى الغنمَ ؟ قال : نعم ، وهل من نَبىٍّ إلاَ رَعاها " ؟ (٣).

= = = = = = =

يقول جابر بن عبد الله – رضى الله عنه – راوى هذا الحديث الشريف – كنا مع رسول الله – ﷺ – بمنطقة " مرِّ الظَّهْران " بالقرب من مكة المكرمة نجنى الكَباثَ وهو النضيجُ من الأراك فقال لهم ﷺ عليكم بجنى الأسود من ثماره فإنه أطيب ثمار الكَباث فسألوا النبى – ﷺ – أكنت ترعى الغنم ؟ وفى هذا السؤال إيجاز بالحذف تقديره : " أكنت ترعى الغنم حتى عرفت أطيب الكباث ؟ لأن راعى الغنم يكثر تردده تحت الأشجار لطلب المرعى منها والاستظلال تحتها " (٤) فأجابهم ﷺ – بقوله نعم رعيتها حيث إن النبى – عليه السلام – قد اشتهر برعى الغنم وكذلك الأنبياء عليهم السلام ، وهذا ما أكده ﷺ فى حديث آخر إذ يقول : " ما بعث الله نبياً إلا رَعَى الغنمَ فقال أصحابه وأنتَ ؟ فقال نعم كُنْتُ أرعاهَا على قراريطَ لأهل مكة " (٥) وكذا

---

(١) الكَبَاثُ : نَضيجُ ثَمر الأَراكِ ، وقيل : هو لم يِنْضَجْ منه واحدته كَبَاثَةُ . اللسان مادة : كبث .

(٢) أيطَبُ : لُغَةُ فى أطيب أى بمعنى أطيب ، وما أيْطَبَهُ لُغَةُ فى ما أطْيبَهُ . اللسان مادة : يطب .

(٣) فتح البارى ٩/٤٨٨ .

(٤) فتح البارى ٩/٤٨٩ .

(٥) السابق نفسه ٤/٥١٦ .

قوله ﷺ فى هذا الحديث " وهل من نبى إلا رعاها ؟ وهو استفهام قُصد بـــه معنى النفى وكأن النبى - عليه السلام - يريد أن يقول لهم "وما من نبى إلا رعاها " وفى هذا الاستفهام توكيد قوى على أن كل الأنبياء بلا استثناء قد رعوا الغنم وقاموا على رعايتها ، " وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونهـــا فى العادة المألوفة " (١) .

" والحكمة فى رعاية الأنبياء للغنم ليأخذوا أنفسهم بالتواضـــع وتعتـــاد قلوبهم بالخلوة ويترقوا من سياستها إلى سياسة الأمم " (٢) ثـــم إن الأنبيـــاء يحصلون من مخالطة الأغنام ورعايتها على " الحلم والشفقة لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها فى المرعى ونقلها من مسرح إلـــى مســـرح ودفع عدوها من سبُع وغيره كالسارق وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة ألفوا من ذلك الصبر على الأمة وعرفـــوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها فجبروا كسرها ورفقُوا بضعيفها وأحســـنوا التعاهد لها فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعى الغنم " (٣) .

---

(١) فتح البارى ٥١٦/٤ .
(٢) السابق ٥٠٦/٦ .
(٣) نفسه ٥١٦/٤ .

الحديث الثانى والعشرون

فَهلاَ جاريةً تُلاعبُها وتُلاعبُك ؟

عن جابر بن عبد الله قال : " قَفَلنا معَ النبىِّ - ﷺ - من غـزوةٍ . ، فتعجَّلْتُ على بعيرٍ لى قَطوف ، فلَحِقَنى راكبُ من خَلفى ، فـنَخَس بَعيـرى بعَنزةٍ كانت معه ، فانطلقَ بعيرى كأجْوَدِ ما أنتَ راء من الإبل ، فإذا النبـى - ﷺ - ، فقال : ما يُعجلُكَ ؟ قلت : كنت حديثَ عهد بعُرس . قال : أبِكْـراً أم ثيِّباً ؟ قلتُ ثَيباً . قال : فهلا (*) جارية " تُلاعبُها وتُلاعبُك . قال : فلمـا ذَهَبنا لندخلَ قال : أمهِلوا حتى تَدخلوا ليلاً - أى عِشـاءً - لكـى تمتَشِـطَ الشَّعِثةُ (١) ، وتستحدَّ المُغِيبةُ (٢) " (٣).

= = = = = = =

ورد هذا الحديث الشريف فى قصة النبى - ﷺ - مع جابر بن عبد الله - رضى الله عنه - وذلك أثناء رجوعهما من إحدى الغـزوات حيـث دار حوار بينهما بدأه ﷺ بالسؤال عن سبب تعجله بعيره فقال جابر : كُنتُ حديث عهد بعُرس أى أنه تزوج حديثاً فقال ﷺ : أبكراً أم ثيباً ؟ وفى هذا السـؤال إيجاز بالحذف تقديره : أتزوجت بكراً أم ثيباً ؟ فقال جابر : ثيباً . فقـال ﷺ فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك ؟ وكذلك فى هذين القولين إيجاز بالحذف تقديره تزوجت ثيباً ، فهلا تزوجتُ جاريةً تلاعبها وتلاعبك ؟ وعن سبب زواجه بثيب يقول جابر - رضى الله عنه - : " هلك أبى وترك سـبع بنـات - أو

(*) هلا : مأخوذ من " هل " فى حال تركيبها مع " لا " الزائدة عليها فصارت هلاَ بتشديد اللام . مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ٢٤٢/٢ .

(١) الشَّعِثةُ : التى تَلبَّدَ شَعْرُهَا واغْبَرَّ . اللسان مادة : شَعِثَ .

(٢) المُغِيبَةُ : هى التى غَابَ عَنْها زَوْجُها . اللسان مادة : غَيَب .

(٣) فتح البارى ٢٤/٩ .

تسع بنات – فكرهت أن أجمع إليهن جارية خرقاء مـثلهن فتزوجـت ثيبـاً تجمعهن وتمشطهن وتقوم عليهن فقال له ﷺ أصـبت ودعـا لـه بالبركـة والخير " (١) .

وفى قوله عليه السلام " فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك ؟ استفهام يفيد التهيـيج والإلهاب ، وكأن النبى – عليه السلام – قد أراد من هذا الاستفهام تهييج جـابر – رضى الله عنه – وتحريك مشاعره ووجدانه ، وإلهاب عواطفه وأشواقه إلى نكاح البكر من النساء .

وفى إيثار التعبير بالمضارع " تلاعبها " و " تلاعبـك " إشـارة إلـى استحضار صورة الملاعبة والمداعبة فى الذهن وكأنها تحدث الآن ، وتجدد هذه الصورة واستمرارها لاسيما من الزوجة البكر لحديث عهدها بالزواج .

بل إن النبى – ﷺ – قد ورد عنه بأصرح من ذلك الاسـتفهام حيـث يقول : " عليكم بالأبكار فإنهن أعذب أفواهاً وأنتق أرحاماً " (٢) يعنى " أكثر حركة " ، والنتق الحركة ولعله أراد أنها كثيرة الأولاد " (٣) وكذا قوله عليه السلام فى حديث آخر : " وأرضى باليسير " (٤) أى أن الأبكار من النساء يرضين بالقليل من النكاح .

وهكذا يتضح لنا حرص النبى – ﷺ – على إرشاد أصحابه وتنبيههم إلى مصلحتهم حتى ولو كانت متعلقة بأمر النكاح ، وفيما يُستحيا من ذكره أو التصريح به .

---

(١) فتح البارى ٩/٢٥ بتصرف يسير .

(٢) فتح البارى ٩/٢٥ .

(٣) السابق ٩/٢٥ .

(٤) السابق ٩/٢٥ .

الحديث الثالث والعشرون

فمَنْ أعْدَى الأولَ ؟

عن أبى هريرةَ – رضى الله عنه – قال : " إنَّ رسولَ الله – ﷺ – قال : لا عَدْوىَ . فقامَ أعرابى فقال : أرأيتَ الإبلَ تكونُ فى الرمالِ أمثالَ الظباء ، فيأتيها البعيرُ الأجربُ فتُجربَ ؟ قال النبىُّ – ﷺ – : فَمَنْ أعدَى الأولَ " ؟ (١).

= = = = =

كانت العرب فى الجاهلية تعتقد أن العدوى تؤثر بذاتها فى انتقال المرض من صاحبه إلى غيره من غير إرادة الله – عز وجل – وقدرته فنفى النبى – ﷺ – ذلك من خلال هذا الحديث الشريف بقوله : " لا عدْوَى " بمعنى أنه لا تأثير للعدوى فى انتقال المرض أو إحداثه ، وإنما المرض خاضع لقدرة الله تعالى وإرادته فهو الخالق سبحانه للأسباب والمسببات فإن شاء أعمل الأسباب ، وإن شاء أبطلها فمن أراد الله تعالى له استمرار الصحة بقى سليماً مُعافى ولو اختلط بالمرضى ، ومن أراد له المرض نفذت إرادته ولو تباعد عنه المرضى ، ولما نفى النبى – ﷺ – تأثير العدوى على نقل الأمراض قام أعرابى فقال : أرأيت الإبل تكون فى الرمال أمثال الظباء فيأتيها البعيرُ الأجربُ فتجربَ ؟ أى أن هذا الأعرابى قد ظن أن الأمر على خلاف ما ذكره النبى – ﷺ – حيث يرى الإبل تكون فى الرمال أمثال الظباء فى القوة والنشاط والسلامة من الداء فيخالطها البعير الأجرب فينقل الجرب إليها .

فردَّ عليه النبى – ﷺ – بذلك الجواب البليغ المقنع "فمن أعْدَى الأولَ "؟

---

(١) فتح البارى ١٠/٢٥٤ .

وفى ذلك القول الشريف استفهام تقريرى قصد به ﷺ حمل المخاطب علـــى الإقرار بما يعرفه وهو أن السبب فى إصابة البعير الأول والثانى بالجرب . إنما يرجع فى الحقيقة إلى سبب واحد وهو الله جلت قدرته المسبب للأسباب والخالق القادر على كل شئ جلَّ فى علاه . ، وهذا الاستفهام النبوى يُعد رداً غاية فى البلاغة والإقناع فهو برهان عقلى مقنع ، وكأن النبى – ﷺ – أراد أن يقول لهذا الأعرابى : إذا كانت العدوى مؤثرة بنفسها فى نقل المرض من غير إرادة الله – عز وجل – وقدرته كما تزعمون فمَنْ الذى أمرض البعيـــر الأول ؟ ، وهو جواب لا يقبل التأويل أو الشك وهكذا يتخذ النبى – ﷺ – من هذا الاستفهام وسيلة قوية لإقناع المخاطبين بخطئهم وفساد معتقداتهم ، وهذا أدعى إلى فهم حقيقة الأمر على وجه اليقين وهو أن العدوى لا تؤثر بـــذاتها فى نقل المرض ، وإنما هى خاضعة لإرادة الله تعالى وقدرته فمن أراد الله – عز وجل – له السلامة من الداء استمر سليماً ولو خالط المرضى ومن أراد له المرض صار مريضاً ولو تباعد عنه المرضى فاللهم عافنا جميعاً من شر الأمراض يا رب العالمين .

الحديث الرابع والعشرون

ما بالُ أقوامٍ يَتنزهُونَ عن الشئِ أصنعُه ؟

عن مسروق قال : " قالت عائشة – رضىَ الله عنها : صَنَعَ النبىُّ – ﷺ – شيئاً ترخَّصَ (١) فيه وتَنزَّهَ عنه قومُ ، فبلغَ ذلك النبىَّ – ﷺ – فحمدَ الله وأثنى عليه ثم قال : ما بالُ (٢) أقوامٍ يَتنزهُونَ عن الشئ أصنعُه ؟ فوالله إنى أعلمُهم بالله ، وأشدُّهم له خَشيَّةً " (٣).

= : = : = : =

جاء فى هذا الحديث الشريف أن النبى – ﷺ – ترخَّص فى شئٍ صنعه من أمور العبادة تيسيراً على أصحابه وتخفيفاً فتنزه عن هذا الترخص قوم من الناس ورغبوا عنه وتركوا الأخذ به " ولعل هذا الشئ الذى تنزهوا عنه القُبلةُ للصائم أو الفِطْر فى السفر " (٤) .

فبلغ ذلك النبى – ﷺ – فغضب من صنيعهم ثم قال : " ما بال أقوام يتنزهون عن الشئ أصنعُه ؟ وفى هذا القول الشريف استفهام يفيد الإنكار والتعجب أى أن النبى – ﷺ – قد أنكر على هؤلاء القوم تنزههم ورغبتهم عن هذا الترخص الذى فعله لأنه يجب عليهم اتباعه والإقتداء به ﷺ سواء كان ذلك فى العزيمة أو الرخصة أو غيرهما امتثالاً لقوله عز وجل : ﴿ لَقَدْ

---

(١) ترخَّص : الرُّخْصَةُ فى الأمر خِلافُ التشديد والتخفيف ، والمراد بقوله " ترخص فيه " أى تخفف فيه ولم يتشدد . اللسان بتصرف مادة : رخص .

(٢) البَالُ : الحالُ والشأنُ ، " ما بالُ أقوامٍ " أى ما شأن أقوامٍ بمعنى أنهم لم يشتد عليهم الأمر ولم يكترثوا ويهتموا بما صنعوا . اللسان بتصرف مادة : بول .

(٣) فتح البارى ١٣/٢٩٠ .

(٤) فتح البارى ١٣/٢٩٣ .

كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (١) لأن الخير والفلاح والنجاح فى اتباعه والتأسى به ﷺ .

فضلاً عن " أن استعمال الرخصة بقصد الاتباع فى المحل الذى وردت أولَى من استعمال العزيمة " (٢) .

وكذلك فقد تعجب ﷺ من صنيعهم هذا لأنهم توهموا أن تنزههم ورغبتهم عما فعله ﷺ أقرب لهم عند الله تعالى ، وأتقى لله عز وجل من رسوله – ﷺ – ، وكذا لظنهم أن الذى قد غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر إذا ترخَّص فى شئ لم يكن مثل غيره من الذين لم يُغفر لهم فيحتاجون إلى الأخذ بالعزيمة والشدة لينجوا بأنفسهم من المهالك .

وأوثر التعبير بالمضارع " يتنزهون " لاستحضار الصورة فى الذهن وللإشارة إلى استمرار ودوام حدوث التنزه من هؤلاء القوم عما ترخَّص فيه ﷺ ، مما دعا النبىَّ – ﷺ – إلى أن يقرر لهم ويشدِّد على أنه أعلمهم بالقُربة من الله – عز وجل – وأولاهم بالعمل بها ، وأنه " إن كان قد غفر الله تعالى له ما تقدم من ذنبه وما تأخر لكنه مع ذلك أخشى الناس لله وأتقاهم ، فمهما فعله ﷺ من عزيمة ورخصة فهو فيه فى غاية التقوى والخشية ، لم يحمله التفضل بالمغفرة على ترك الجدِّ فى العمل قياماً بالشكر، ومهما ترخَّص فيه فإنما هو للإعانة على العزيمة ليعملها بنشاط "(٣).

---

(١) الأحزاب الآية : ٢١ .

(٢) فتح البارى ٢٩٣/١٣ .

(٣) السابق ٢٩٣/١٣ .

ومن ثمَّ فلا يجوز مطلقاً لهؤلاء القوم أن يتنزهوا ويرغبوا عما ترخَّص فيه النبى – ﷺ – لأن ذلك من أعظم الذنوب والآثام لمخالفته الأمر الشرعى. وكان الأولَى أن يأخذوا بكل ما أتَى به النبى – ﷺ – وينتهوا عن كل ما نَهَى عنه وذلك عملاً بقوله جل شأنه : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١) .

---

(١) الحشر من الآية : ٧ .

الحديث الخامس والعشرون

أتدرُونَ ما يَقولُ ؟

عن هشام بن زيد بن أنس بن مالك قال : " سمعتُ أنسَ بن مالك يقول : مرَّ يهوديٌّ برسول الله - ﷺ - فقال : السَّامُ عليكَ فقال رسول الله - ﷺ - أتدرون ما يقول ؟ قال السَّامُ عليكَ ، قالوا : يا رسول الله ألا نقتله؟ قال : لا ، إذا سلم عليكم أهلُ الكتاب فقولوا : وعليكم " (١).

= = = = = = =

فى هذا الحديث الشريف يُبيِّن النبى - ﷺ - كيفية ردِّ السلام على أهل الذمَّة لاسيما اليهود ، وذلك حينما مرَّ رجل يهودى على النبى - عليه السلام - وهو جالس مع أصحابه فقال اليهودى : " السَّامُ عليكم " فقال رسول الله - ﷺ - وعليك فسأل الرسول - عليه السلام - أصحابه : " أتدرون ما يقول " ؟ وهو استفهام تقريرى قصد به ﷺ حمل أصحابه على الإقرار بما يعرفونه وهو إدراكهم لمعنى لفظ " السَّام " فى تحية هذا اليهودى ، وهذا اللفظ يعنى - هنا - " الموت والهلاك " ، وهكذا فهمه صحابة رسول الله - ﷺ - بل وأدركوا المغزى الخبيث من ورائه وهو الدعاء على النبى - ﷺ - بالموت والهلاك ، ولذا غضبوا بشدة من هذا اليهودى بسبب ما صدر منه حتى أنهم أرادوا قتله والفتك به فقالوا : " يا رسول الله ألا نقتله " ؟ فقال : لا ، وهذا إنما يدل على غاية صفْحه وبالغ عَفْوه ﷺ على من ظلمه حتى ولو كان من أعدائه .

ثم علَّم النبى - عليه السلام - أصحابه كيفية الردِّ على أهل الكتاب يعنى بقولهم : " السَّامُ عليكم " فردُّوا عليهم بقولكم : " وعليكم " أى وعليكم الموت والهلاك .

---

(١) فتح البارى ٢٩٣/١٢ .

هذا ، وقد روى عامة المحدثين هذا الحديث الشريف بإثبات الواو فى قوله ﷺ " وعليكم " ، وقد دار خلاف كبير بين العلماء حول إثبات هذه الواو وحذفها " فذهب بعضهم إلى أن إثباتها يقتضى التشريك فى الحكم لأن الواو حرف تشريك ، وبهذا يصير المعنى علىَّ وعليكم ، والبعض الآخر ذهب إلى أن حذفها أحسن من إثباتها لأن معناه رددتُ ما قلتموه عليكم أى أن قولكم مردود عليكم ، وقال آخرون الصواب أن حذف الواو وإثباتها ثابتان جائزان ، وبإثباتها أجود ولا مفسدة فيه وعليه أكثر الروايات وفى معناها وجهان : أحدهما أنهم قالوا عليكم الموت فقال وعليكم أيضاً أى نحن وأنتم فيه سواء كلنا نموت ، والثانى أن الواو للاستئناف لا للعطف والتشريك ، والتقدير : وعليكم ما تستحقونه من الذم " (١) ، والرأى الأخير هو الأقرب للصواب .

والله تعالى أعلى وأعلم

---

(١) فتح البارى ١١/٤٨ .

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم :

١- الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية فى القرآن الكريم - د / صبّاح دراز - ط / مطبعة الأمانة - الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

٢- بغية الإيضاح - عبد المتعال الصعيدى - طبعة الأداب - القاهرة .

٣- التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الحكيم - د / عبد العظيم المطعنى طبعة مكتبة وهبة .

٤- جواهر البلاغة للهاشمى ط / دار الكتب العلمية .

٥- الحديث النبوى الشريف من الوجهة البلاغية - د / عز الدين السيد ط/دار الطباعة والمحمدية بالأزهر - الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ / ١٩٧٣م.

٦- شرح أحاديث من صحيح البخارى - د / محمد أبو موسى - نشر وطبع مكتبة وهبه - الطبعة الأولى ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م .

٧- شروح التلخيص - ط / دار السرور - بيروت - لبنان .

٨- عمدة القارئ - شرح صحيح البخارى للعينى ط / دار إحياء التراث العربى .

٩- فتح البارى بشرح صحيح البخارى - لابن حجر العسقلانى - ط / دار الريان للتراث - الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

١٠- فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوى - ط / دار الحديث .

١١- الكشاف للإمام محمود بن عمر الزمخشرى – نشر وطبع دار الريان للتراث ودار الكتاب العربى بيروت – الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

١٢- لسان العرب لابن منظور ت / عبد الله على الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلى – ط / دار المعارف .

١٣- مغنى اللبيب وبهامشه حاشية الشيخ محمد الأمير لجمال الدين بن هشام الأنصارى – ط / دار إحياء الكتب العربية .

فهرس الآيات القرآنية (*) (*)

الآيـــــــــــــــــــــة	اسم السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿ ... وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾	البقرة (١)	٢٢٩	٤٠
﴿ ... وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ ... ﴾	البقرة	٢٨٢	٣٨
﴿ ... أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ... ﴾	البقرة	٢٨٢	٣٨
﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ... ﴾	آل عمران (٣)	١٢٨	٤٤
﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ ... ﴾	النساء (٤)	١٤	٣٩
﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ ... ﴾	النساء	٢٣	٦٧
﴿ وَاعْبُدُواْ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا ... ﴾	النساء	٣٦	٢٠
﴿ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ... ﴾	النساء	٨٠	٤٤
﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا ... ﴾	المائدة (٥)	٣٨	٤٠
﴿ ... أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾	الأعراف (٧)	٢٨	١٥
﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ... ﴾	التوبة (٩)	٣٦	٥٤
﴿ ... إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾	الإسراء (١٧)	٨٧	٢٩
﴿ ... وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ... ﴾	الإسراء	٩٧	٥٨
﴿ ... أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾	الأنبياء (٢١)	٦٢	١١

(*) الرقم الذى على شمال اسم السورة هو رقم ترتيبها فى المصحف الشريف .

(*) النقط فى صدر الآية تدل على أنها لم تبدأ من أولها ، والنقط التى بعدها تدل على أن لها بقية لم تكتب .

الآيـــــــــــــــــــة	اسم السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿ ... هَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾	الأنبياء	٨٠	١٦
﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ ... ﴾	الفرقان (٢٥)	٣٤	٥٨
﴿ ... فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ... ﴾	الروم (٣٠)	٣٠	٣٠
﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... ﴾	الأحزاب(٣٣)	٢١	٢٥، ٧٨
﴿ ... وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾	الأحزاب	٧١	٤٤
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ ... ﴾	الحجرات(٤٩)	١١	٢١٠
﴿ ... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ... ﴾	الحجرات	١٣	٢١
﴿ ... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ... ﴾	الحشر (٥٩)	٧	٧٩

فهرس الموضوعات

الموضـــــــوع	الصفحة
المقدمة ..	٥
تمهيد – الاستفهام .	٨
الحديث الأول : يا أبا ذر أعيرته بأمه ؟	٢٠
الحديث الثانى : آلصبح أربعاً ، آلصبح أربعاً ؟	٢٤
الحديث الثالث : إثم من رفع رأسه قبل الإمام .	٢٦
الحديث الرابع : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟	٢٨
الحديث الخامس : ما من مولود إلا يولد على الفطرة .	٣٠
الحديث السادس : وأيكم مثلى ؟	٣٢
الحديث السابع : لا تحتلب ماشية أحد بغير إذنه .	٣٤
الحديث الثامن : أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل ؟	٣٧
الحديث التاسع : أتشفع فى حد من حدود الله ؟	٣٩
الحديث العاشر : كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ؟	٤٣
الحديث الحادى عشر : لا حول ولا قوة إلا بالله .	٤٥
الحديث الثانى عشر : ما لك وضالة الإبل ؟	٤٨
الحديث الثالث عشر : أفلا قعدت فى بيت أبيك وأمك ؟	٥٠
الحديث الرابع عشر : فى حجة الوداع .	٥٣

الموضـــــــوع	الصفحة
الحديث الخامس عشر : كيف يحشر الكافر على وجهه ؟	٥٧
الحديث السادس عشر : ألا أخبركم بأهل الجنة وبأهل النار ؟	٥٩
الحديث السابع عشر : وأنذر عشيرتك الأقربين .	٦١
الحديث الثامن عشر : فضل " قل هو الله أحد " .	٦٣
الحديث التاسع عشر : أو تحبين ذلك ؟	٦٥
الحديث العشرون : يا معاذ أفتان أنت ؟	٦٧
الحديث الحادى والعشرون : وهل من نبى إلا رعاها ؟	٧١
الحديث الثانى والعشرون : فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك ؟	٧٣
الحديث الثالث والعشرون : فمن أعدى الأول ؟	٧٥
الحديث الرابع والعشرون:ما بال أقوام يتنزهون عن الشئ أصنعه؟	٧٧
الحديث الخامس والعشرون : أتدرون ما يقول ؟	٨٠
فهرس المصادر والمراجع .	٨٢
فهرس الآيات القرآنية .	٨٤
فهرس الموضوعات .	٨٦